ميشال مافيزولي

مكتبة

زمن المخاوف

ترجمة: أبو بكر العيادي

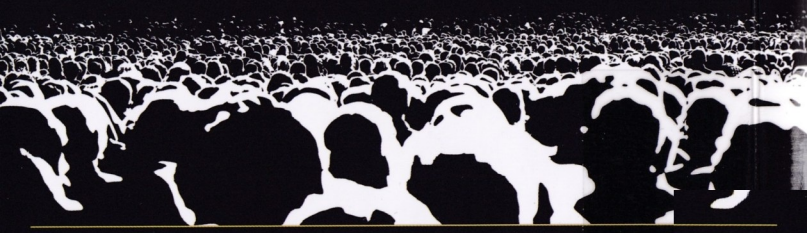

صفحة

Le Temps des Peurs

Michel Maffesoli

مكتبة
t.me/soramnqraa

زمن المخاوف

ميشال مافّيزولي

ترجمة: أبو بكر العيادي

صفحة ٧

صفحة ٧

كتاب
زمن المخاوف
المؤلّف
ميشال مافّيزولي

الطّبعة الأولى:2024
التّرقيم الدّوليّ
978-603-8387-79-5
رقم الإيداع
1445/10885

©Les Éditions du Cerf, 2023

حقوق التّرجمة العربيّة محفوظة
© صفحة سبعة للنّشر والتّوزيع
E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

مكتبة
t.me/soramnqraa

جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تعبر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها.

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

الفهرس

توطئة 5

1 –الخوف النّموذجيّ 15

2 – مجتمع الفرجة 35

3 – عن التّآمريّة 51

4 – عن الْوُوكِيّة 75

5 – تمرّد الشّعب 95

6 – التّقاليد 115

7– النّهضة 143

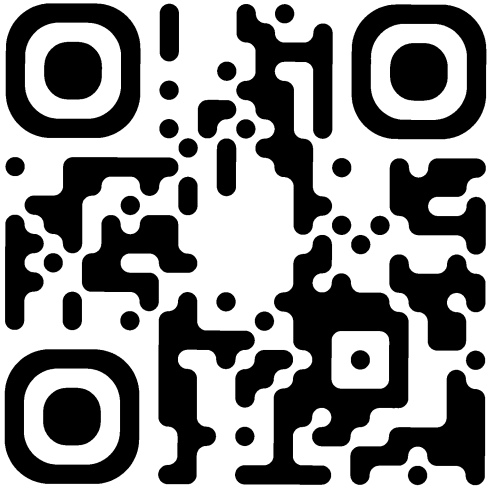

توطئة

من يتحكّم في خوف النّاس يملك أرواحهم.

مكيافيلّي

مكتبة
t.me/soramnqraa

أن نحسن الاستماع إلى الكائن الاجتماعيّ ليس بالأمر الهيّن، ولكن لا غنى عنه إذا أردنا أن نكون منسجمين مع روح العصر. أن نحسن رؤية «ما هو أوضح من النّهار» والذي لا نريد وفق قناعاتنا السّياسيّة والفكريّة والاقتصاديّة أن نراه. أن نحسن تقدير ما هو كائن لا ما نريد أن يكون. باختصار، أن نطوّر «فكر نظام ملموس» بعبارة كارل شميت.

في كلّ مرحلة تاريخيّة توجد «روح مبدأ»، ما يحرّك نمط الكينونة والتّفكير، ما ينشّط الأحلام الجماعيّة، ما يكون أساسًا للعيش الاجتماعيّ المشترك، ولكنّ الاهتداء إلى مثل هذا المبدأ غير مأمون العواقب، ذلك أنّ النّخبة القائمة، نظرًا إلى الامتثاليّة السّائدة في المراحل الوسيطة، لا تريد أن ترى الانحطاط، أي التّداعي العميق للحضارة الحديثة، تلك المتأتّية من القرن الثّامن عشر، ولا تعرف خاصّة رؤية النّهضة التي تَخلُف حتمًا دمار النّظام القائم.

إنّه مسار متواتر في التّواريخ البشريّة، يحيل على صيغة كانت تُدرَّس لنا في شبابي: **تُحبّ أن تُعيد نفسها مرّتين**[1]. ينبغي أن نقول ونعيد إنّ الحديث والقديم يتناوبان بلا نهاية، ونذكّر بأنّ الجديد والتّقليديّ، بصرف النّظر عن أسطورة التّقدّم، مترابطان. هي «الفلسفة الممعنة في التّقدّم»، فلسفة «التّجذّر الدّيناميكيّ» إن شئنا استعمال طباق عزيز عليّ، أي التّدرّج الذي لا ينحصر في التّقدّميّة. فالتّقدّميّة تطرح في نوع من الادّعاء مسلَّمةً مفادها أنّه يمكن تجاوز الشّرّ، فيما يوصي التّدرّج بالتّكيّف معه، أو كما تقول الحكمة الشّعبيّة، أن «نسلّم به»! وذلك تعبير عن التّناقض البشريّ العميق، الذي عركه النّظام والفوضى في الوقت ذاته. سببٌ ومسبّب لمعرفة جوهريّة متجسّدة: **النّظام ينجم عن الفوضى**[2].

أن نقول ونعيد ما تُعلّمنا إيّاه التّقاليد، ونلائمه مع ما نعيشه يوميًّا. أليس هذا **سوناتة فانْتويْ**، ذلك العمل الموسيقيّ المتخيّل الذي يتحدّث عنه مارسيل بروست في **غَرام سوان**، تلك المقطوعة التي تُعلم البطل وتذكّره بلقائه بأوديت؟ تلك المناسبة جاءت تنشّط قوى الذّاكرة، وتثير رَجْع الأحلام والأساطير والتّخيّلات، وتُحْيي الوعي الجمعيّ بعمق. ومن ثَمّ، ذي بعض كلمات وتدوينات ترتدّ بكيفيّة مضنية في الصّفحات التّالية، تذكيرًا بما ندين به للتّقاليد.

قلبُ تحليلي النّابضُ، منذ عدّة عشريّات، هو جعل الإنسان متنبّهًا

---

(1) باللّاتينيّة في الأصل bis repetita placent، ما يعني تقريبًا «التّاريخ يعيد نفسه». (الهوامش من وضع المترجم إلّا إذا وردت إشارة مخالفة).

(2) باللّاتينيّة في الأصل ordo ab chao

إلى اجتياح المجتمعيّة من طرف «ليفياثان[3]»، وجه الدّولة العتيدة، بتكنولوجيّتها البيروقراطيّة التي تركّز اهتمامها في هذه اللّحظة في نوع من الاستبداد الطّبّيّ السّياسيّ عن طريق استراتيجيّة الخوف. والأمر هنا يتعلّق بمنطق هيمنة غالبًا ما يعود إلى واجهة المشهد الاجتماعيّ، ويتلخّص ببساطة في: أحميكَ، فتخضع.

سلطة تلك «البيروقراطيّة السّماويّة» التي تستند إلى أدعياء عِلمَويّين[4] أكثر من كونهم علماء، يستفيدون من صحافةٍ مجامِلة، ويستخدمون الامتثاليّة المنطقيّة لخبراء مؤهَّلين، سوف تتمثّل في تحريف الخوف الأصليّ الذي يمسك بأحشاء الطّبيعة الإنسانيّة (الفصل 1). بعبارات مألوفة: مخوِّفون يتلاعبون بمخَوَّفين! إنّه ليفياثان معمَّم يهدّد كلّ ملامح الحياة العاديّة، ويعدّد الأوامر (المتناقضة في الغالب) التي من بينها، في الآونة الأخيرة، لُبسُ تلاميذِ المعاهد الإعداديّة سوارًا متّصلًا بالإنترنت لقياس حالتهم الصّحّيّة، عقب دراسة للوكالة الوطنيّة للأمن الصحّيّ. الأمر يتعلّق، حتّى الآن، بقياس تجريبيّ (في محافظة سارْت)، ولكنّ شبح **أخ أكبر** راعٍ[5] لا يني يتمدّد، وذلك بفضل «كلّنا في لياقة جيّدة»[6]

---

(3) Léviathan : مخلوق بحريّ أسطوريّ، له رأس تنّين وجسد أفعى، ورد ذكره في التّوراة في أكثر من موضع، وصار، منذ اتّخذه توماس هوبز (1588-1679) عنوانًا لأحد مؤلّفاته، رمزًا للوحش الشّموليّ.

(4) Scientiste: من أتباع العِلمويّة وهي مذهب فلسفيّ ظهر في نهاية القرن التّاسع عشر، يدعو إلى الاكتفاء بالعلم، لكونه يجعلنا نعرف كلّ الأشياء الموجودة معرفةً كافية لتلبية جميع تطلعاتنا البشريّة.

(5) Big Brother: بطل رواية جورج أورويل «1984».

(6) Tous en forme. Paris-Cité

التّطبيقة التي أعدّتها جامعة باريس سيتي. الجامعة في خدمة الهيمنة المطلقة!

وما تلك سوى تلاعبات من الميديا، التي تعرف، حسب عبارة غي ديبور أو جان بودريار، كيف تستخدم «المظاهر الخدّاعة» لتعزّز «مجتمع فرجة» بعيد عن الواقع إلى أقصى حدّ (الفصل 2). ولكن هل نستطيع أن نفهم التّحوّل الاجتماعيّ الرّاهن بمثل هذا «الفكر الحاسب»؟

لا أعتقد ذلك: بسبب تَمْرْكُس[7] الأذهان، يسارًا ويمينًا ووسطًا على حدّ سواء، فما يبدو مهمًّا لدى النّخبة هو «المأكل»، أي ما تُسمّيه بطريقة متحذلقة القدرة الشّرائيّة، التّضخّم الماليّ، الكاك 40[8]... وتنسى أنّ الأكل حتّى الشّبع مهمّ لا محالة، ولكنّ الذّهن والأسطورة والمخيال، تلك البنى الأنثروبولوجيّة الأساسيّة للصّالح العامّ لا تقلّ عنه أهمّيّة.

بنسيان الأبعاد المتعدّدة للصّالح العامّ وتضمينها الرّوحانيّ، والتي يذكّرنا بها بالمَضاء الذي نعرف، فكر القدّيس توما الأكويني، اتّخذ المبدأ الشّموليّ في القرن الماضي أكثر أشكال المادّيّة فظاظة. أصحاب فكر ثاقب استطاعوا أن يوازنوا موازنة مضيئة بين التُّوتاليتاريّات الفاشيّة والتّوتاليتاريّة الشّيوعيّة، تلك الأنظمة المتعدّدة التي أسميتها في حينها «التّوتاليتاريّة النّاعمة» للدّيمقراطيّات الحاليّة[9].

---

(7) تأثّر بفلسفة كارل ماركس.

(8) CAC 40: مؤشّر بورصة باريس لأكبر أربعين شركة فرنسيّة.

(9) انظر Jacques Maritain, Humanisme intégral, Paris, Aubier, 1936 (المؤلّف).

المنطق هو نفسه: فرض رفاهيّة مقلّلة على حساب وضع كلّيانيّ أفضل، وذلك عن طريق إخضاع مطلق. لا ننسى أنّ **الأخ الأكبر** أزليّ! القلب النّابض للمبدأ الشّموليّ هو القسوة الخاصّة بأولئك المهيمِنين (أيًا ما تكن أسماؤهم) الذي يستغلّون الرّفاهيّة ليسوّغوا الاستبداد والاستعباد المتولّدَين عنها.

تلك القسوة التي تَحرم «الغذاءَ الضّروريّ لحياة الرّوح»[10]، كما تؤكّد سيمون فايل، تؤدّي إلى حياة خاملة تمامًا. وكلّ ذلك يتمّ بإنكار «مفهوم الفرض» الذي يسبق مفهوم الحقوق، رغم أنّ الحداثة نسيته. فرضنا إزاء الذين لم يولدوا بعد: عربون المستقبل. فرض يجد جذوره في الماضي، في تلك «الكنوز الرّوحانيّة التي راكمها الأموات»[11]. حِكم آبائنا لا تعلّمنا نكرانَ الخوف، بل جعلَهُ مقبولًا.

أمكن تقديمُ ماكسيميليان روبسبيير بكونه روحًا حانية متعاطفة، ووصفُ «ميله الفطريّ إلى الإشفاق على الضّعاف والبائسين[12]». لعلّ ذلك ما وسم نشاطه في لجنة الإنقاذ الوطنيّ، الذي لم يكن دوره في عهد الإرهاب[13] قليل الأهمّيّة؟ بعض النّفوس الطّيّبة تجهد

Simone Weil, L'Enracinement. Prélude à une déclaration de devoirs envers l'être humain, Paris, Gallimard, 1949.

انظر أيضًا كتابي Michel Maffesoli, La violence totalitaire. Paris, PUF, 1979 أعيد نشره في Après la modernité, Paris, CNRS Editions, 2010 (المؤلّف).

(10) Simone Weil, L'Enracinement (المؤلّف).

(11) نفسه.

(12) Ernest Hamel, Histoire de Robespierre et du coup d'État du 9 thermidor, Paris, A. Cinqualbre, 1865 (المؤلف)

(13) عهد الإرهاب (5 سبتمبر 1793 -28 يوليو 1794): الفترة الدمويّة التي شهدتها

خلال الأعوام الأخيرة في الاحتفال بـ«وليّ نعمة الإنسانيّة» ذاك! مبدؤه الأساس، وكذلك مبدأ رفقائه، كان يتمثّل في الإقرار بأنّ السّيادة كامنة في الشّعب، ولكن شرط ألّا يمارسها إطلاقًا!

لطمس تلك المفارقة المخزية، وعلى خطى فلسفة الأنوار التي ألهمت عهد الإرهاب، تريد السّلطة القائمة، كي تُنسيَ منطق الهيمنة المرتبط بكلّ شموليّة، أن ترى «التّآمريّة» في كلّ مكان، وإن شئنا الدّقّة، في كلّ من يسعى لنقد صواب[14] الأخلاقيّات المهيمنة (الفصل الثّالث).

مجلس علميّ، هيئة مراقبة واستباق، مراصد مختلفة للأخبار الزّائفة وأجهزة أخرى مهمّتها فرض «اللّغة الجديدة»[15] المؤدّية إلى إلغاء الفكر، وبالتّالي إخضاع الشّعب، هي بكلّ بساطة وسائل تدمير فكريّ وروحانيّ مثالُها المكتمل محاكمُ التّفتيش.

وكتتويج لذلك، تسعى تلك الامتثاليّة، للتّضليل، إلى التّنافس في الاحتفاء بـ«الووكيزم»[16] المنتشر (الفصل 4). وقد ازدهرت «عمليّات التّحرير» باسم الجنس والعِرق والجندر وكلّ ما يُحشر فيها من هذا النّوع.

ولكن أليس في الاحتفاء بأولئك «اليقظين الجدد» أو

الثّورة الفرنسيّة، وأجّجها الصّراع بين الجيروندييّن واليعاقبة.

(14) بالإنجليزيّة في الأصل correctness

(15) Novlangue، التّرجمة الفرنسية لـ Newspeak التي فرضها الأخ الأكبر، بطل أورويل.

(16) Wokisme: من الإنجليزيّة woke (يقظ)، حركة أفروأمريكيّة تدعو إلى الوعي بالمظالم التي تُسلَّط على الأقلّيات الإثنيّة والجنسيّة والدّينيّة، وبكلّ أشكال الميز، وضرورة الوقوف لنصرة تلك الأقليات والدّفاع عنها.

«المتنوّرين»[17] المعاصرين تنصّلٌ بأخفّ الأضرار من الأيديولوجيا التّهذيبيّة والطّائفيّة المانويّة اللتين تُعبّران عن صورتها المكتملة؟ أن تُكمَّم، بدعوى أوامر سياسيّة، حرّيّة التّعبير أو الفكر النّقديّ، بكلّ بساطة، وتسرد باستمرارٍ المظاهرات التّحرّريّة في السّتينات، فذلك يذكّر بامتثاليّة أولئك الذين «انتقلوا من ياقة ماو إلى روتاري[18]»: هم يشترون ضميرًا مرتاحًا بسعر زهيد.

ليس الاحتفاء بـ «الووكيّة» في الواقع سوى احتفاء بمشروعيّة ممارسات خاصّة بمراحل الانحطاط. ولو استعرنا عبارة هرمان هيسه في **لعبة الكريات الزّجاجيّة**، فنحن في صميم «عهد صفحة المنوّعات»، عهد تسود فيه مسلسلاتيّة من السّجالات العقيمة والطّرائف المتدنّيّة حول حرّيات جامحة مزعومة. تلك المسلسلاتيّة تبلغ ذروتها في مسرحة النّخبة المثقّفة في مجملها، وتياتروقراطيّة[19] العالم السّياسيّ.

ولكنّ الصّحو الشّعبيّ يملك سبقَ إدراكٍ غريزيًّا لانفصال الأوليغارشيّة الإعلاميّة السّياسيّة، وهو ما نجم عنه العصيان الذي لا يزال نموذج **انشقاق الشّعب**[20] في ذاكرة العصر القديم. وإذ

---

(17) Illuminati: عدّة حركات باطنيّة، يعتقد القائلون بنظريّة المؤامرة أنّها تسيّر العالم من خلف كواليس الحكم.

(18) Guy Hocquenghem, Lettre ouverte à ceux qui sont passés du col Mao au Rotary, Paris, Albin Michel, 1986 (المؤلّف)

(19) Théâtrocratie: من ابتكار أفلاطون في كتاب «القوانين»، والمقصود بها نظام أولئك الذين يمسرحون ظهورهم للنّاس، ويعتقدون أنّهم أكفاء في كلّ شيء، دون أن يتعلّموا أيّ شيء، سواء في المسرح أو في المجالات الأخرى؛ ويعتقدون أنهم فوق القوانين والعهود.

(20) باللّاتينيّة في الأصل secessio plebis

أستعيد وأضيف ما حلّلته في **عهد الانتفاضات**[21]، فإنّي أبيّن أنّه انخرط في اتّجاه التّاريخ، بوصفه واقعًا تحديدًا، وبوصفه حياة. إنّه تمرّد الشّعب (الفصل 5).

التمرّد يذكّر بأنّ الجوهريّ، لكي نفهم في الوقت ذاته ما هو بصدد الانتهاء وما هو بصدد الولادة، هو أولويّة الرّوحانيّ، وهي أولويّة تتمنّع على مراقبة شديدة البرودة للكراهية المرتابة لنظام حكم عفا عليه الزّمن. نظام مهووس بإنسان أحاديّ البُعد، ناشئ من الفردانيّة والعقلانيّة والتّقدّميّة الحديثة، فيما الواقع، بخلاف ذلك، متعدّد الأقطاب.

تلك هي النّهضةُ (الفصل 6) الجارية. تستهين بالكلام المنمّق الذي يحاول، خلف مظهره الصّارم والعلميّ، أن يفرض «سرديّة» أو «مرويّة» طبقةٍ مغلقة كحقيقة فريدة، والحال أنّها خدعة كبيرة. تلك النّهضة تستند إلى لاوعي جماعيّ يستشعر أنّ تلك المرويّة ليست سوى رعشة خفيفة بلا أهمّيّة تُذكر!

توجَدُ نهضة حين يجد تمامُ المرءِ انفتاحَه في مجموعة تكون له دَمالًا، وحين يعود التّنوّع إلى جدول الأعمال. عالم متعدّد الأقطاب في طور المخاض، سواء من حيث الاعتبارات الجيوسياسيّة، في نظام الطّابع الاجتماعيّ أم في مختلف التّجسّدات الشّخصيّة.

ذلك ما أسماه نيكولا دي كويس **تطابق الأضداد**[22]، ذلك التّطابق في الأشياء المتضادّة الذي يبني الوجود الذّاتيّ والجمعيّ.

---

(21) M. Maffesoli, l'Ère des soulèvements, Paris, Éd. du Cerf, 2021 (المؤلّف).

(22) باللّاتينيّة في الأصل coincidentia oppositurum

ذلك «التّناسق النّزاعيّ» في طور المخاض هو الذي يذكّر بأنّ الخير والشّرّ، الحياة والموت تتمازج كلّها باستمرار. ومن ثَمّ، لم يعد التّناهي يُنكَر، وبات الخوف طقوسيًّا. والأمر يتعلّق هنا بنهضة ما بعد الحداثة: الاعتراف بتلك اللّحظة الغامضة المتمثّلة في كلّ وجود جدير بهذا الاسم.

في سياق أعمالي السّابقة، أودّ مواصلة عمل طويل النّفَس، لا يتوجّه إلى الذين هم في عجلة من أمرهم بطبيعة الحال. نعرف، منذ أرسطو، أنّ ثمّة أسئلة جديرة بأن تُطرَح، دون رغبة في حلّها سريعًا، أي دون مواراتها، كما نفعل في الغالب. إنّ التّساؤل الجوهريّ هو الذي يميّز بين الفكر والرّأي. من ذلك ما يخصّ تناهي الكينونة، القلب النّابض لأعمال هايدغر، حيث يذكّر الفيلسوف الألمانيّ بأنّ «التّساؤل هو ورع الفكر[23]». انطلاقًا من مثل هذا التّساؤل، يمكن إلقاء نظرة على **ما هو كائن**.

---

(23) Martin Heidegger, La Question de la technique [1953], Paris, Gallimard, 1958. (المؤلّف).

1

الخوف النّموذجيّ

الأسماء لا تنفصل عن الأشياء.

باسكال

مراحل الاضطرابات هي لحظات تتمّ فيها سرًّا أشياء كبيرة، يشهد على ذلك التّململ الاجتماعيّ. بغضّ النّظر عن المؤسّسات الرّسميّة، من الواجب التّنبّه إلى تململ يعبّر عن نفسه بصوت خافت، ويحاول أن يقول لنفسه ويعيش لذاته تغييرًا حقيقيًّا للحياة في المجتمع. ثمّ إنّ من المهمّ أن نشير إلى أنّ ذلك التّغيير يتّخذ في الغالب ملمحًا قياميًّا. لا ننسى أنّ القيامة، بمعناها الاشتقاقيّ، هي ببساطة كشف؛ كشف عمّا هو بصدد الانتهاء، وفي الوقت نفسه، عمّا هو بصدد الولادة.

ما انفكّ إحساسنا، بأنّنا في عبور إلى طريقة أخرى للعيش المشترك، يزداد تأكّدًا. بعبارة أكثر رفعة، نحن نعيش انتقالًا معلّقًا[24]. وهذا في خشية وارتجاف، وهو أمر طبيعيّ، فتلك التّحوّلات تثير تصلّبًا في مواقف السّلطات القائمة.

---

(24) Transition épochale: المقصود بـ épochal هنا هو تعليق الحكم لدى الفلاسفة الإغريق الشّكوكيّين، أمّا عند هوسّرل فهو تعليق كلّ حكم يخصّ واقع العالم.

من هنا ينجم إغراء الإخضاع والأمر بالاستسلام، والاستبداد الصّحّيّ في معظم الأوقات. ذلك لأنّ الأنظمة القائمة، إذ تخاف هذا التّغيير، تسرّب بطريقة متسلّطة شعورًا بالخوف. وتلك لازمة أنثروبولوجيّة.

من ذلك مثلًا أنّ المؤرّخ جان دولومو يلاحظ، في كتابه الشّهير **الخوف في الغرب**، أنّ «الخوف داخل أوروبّا في بداية الأزمنة الحديثة ماثل في كلّ مكان». ويؤكّد أنّ ذلك يثير فزعًا ناجمًا عن مبالغاتِ مختلفِ السّلطات العامّة[25]. الأمر نفسه في نهاية الحداثة هذه. صحيح أنّ موضوع الخوف متغيّر ولكنّ البنية متماثلة، من الغول الذّئبيّ إلى الجائحة: تهويل خشية الفناء عن طريق التّذكير بالشّروط الخاصّة بالخضوع.

كانت نهاية العصر الوسيط وبداية الأزمنة الحديثة تعتمدان على الخشية من الجحيم والمطهر، وتحاولان تطوير وسائل النّجاة منهما. ولكن منذ فلسفة الأنوار، سعت السّلطة القائمة إلى إنقاذ العالم بدل الرّبّ باقتراح خلاص دنيويّ، خلاص «هناء» قصير النّظر.

ولكن لا نغفل أنّ خلف كلّ خطاب سلميّ، كما هو الشّأن في كلّ كليروسيّة، تستتر الرّغبة الشّرسة في فرض نمط حياة وتفكير طابعه الجوهريّ هو ما يُطلِق عليه دوركايم «امتثاليّة منطقيّة»، أي أحاديّة سبب ومسبّب «للإنسان الأحاديّ البعد»، أو بعبارة أكثر بساطة،

---

(25) انظر Jean Delumeau, La Peur en Occident, XIVè-XVIIIè siècles, Paris, Fayard, 1978, p 31.

انظر أيضًا مقالتي M. Maffesoli, « Stratégie de la peur sur fonds de peur archétypale », lecourrierdesstrateges.fr, juillet 2022. (المؤلّف).

روبوت مطيع إلى أقصى حدّ (جورج برنانوس، **فرنسا ضدّ الرّوبوتات**).

غير أنّ العَلمانيّة المفرطة تراوح مكانها، والمقدّس في شتّى أشكاله يعود في ما يبدو. وقد اتّضح، من عدّة أوجه، أنّ الأزمة الصّحّيّة، التي أعلنت عنها النّخب الحاكمة بأعلى صوتها، ليست سوى أزمة روحانيّة واسعة النّطاق. وهو ما يحدث، في تأرجح التّواريخ البشريّة، كلّما انتهت حقبة، في انتظار نهضة جديدة.

لعلّنا يمكن أن نطبّق على الوضع الحاليّ ما تمّ تأكيده في الكاثوليكيّة التّقليديّة للإشارة إلى إلغاء زواج: «الشّفاء من الجذر[26]». مؤشّرات كثيرة تدلّ على أنّنا وصلنا إلى نهاية زواج بروميثيوس والحداثة. ذلك الشّفاء يسمح عندئذ بزواج جديد، زواج ديونيسوس وما بعد الحداثة.

هذه الإشارة المجازيّة تلفت الانتباه إلى أنّ الصّمود أمام الخوف الذي يبثّه الاستبداد الصّحّي، فيه ثورة جوهريّة ترتسم، ثورة رفض الثّنائي جسد / روح، طبيعة / ثقافة، التي شكّلت منذ ديكارت فكر الحداثة ونشاطها. ثورة رفض إقصاء «الطّرف الثّالث»؛ أي أنّ الطّبيعة الإنسانيّة معقّدة وأنّ «الطّرف الثّالث»، المتعلّق بالتّناهي، هو جزء لا يتجزّأ من الطّبيعة.

ومن ثَمّ، وسوف نعود إلى ذلك لاحقًا، فالأزمة الحضاريّة الحاليّة، إذ لم تردَّ ذلك الطّرف إلى بعده الصّحّيّ، هي بداية مسار مقاومة شاسع يعرب عن نفسه في خلاف مع النّخبة. هذه المقاومة تكشف

(26) باللّاتينيّة في الأصل sanatio in radice

شيئًا فشيئًا عن شكوكيّة وحتّى عن تمرّد تجاه مختلف استراتيجيّات الخوف.

لا يزال التّململ داخليًّا، ولكنّه ليس بالأمر الهيّن، والمواقع الاجتماعيّة شاهدة على ذلك. هو يصوّر تنقّل النّخب التي أحسن شاتوبريان وصفَها بدقّته الصّائبة المعهودة: «للأرستقراطيّة ثلاثة أعمار متعاقبة: عمر التّفوق، وعمر الامتيازات، وعمر الغرور. تغادر العمرَ الأوّل، فتتفسّخ في العمر الثّاني، وتنطفئ في العمر الثّالث[27].»

يكفي تطبيق مثل هذا التّوصيف على الوضع المعاصر كي نثمّن صوابه. لا جديد يُذكر، ولكن يمكن أن نقوله بكيفيّة جديدة. اعتبارًا لتعدّد الأفكار المبتذَلة المنصبّة يوميًّا على الشّعب الذي نفد صبره، سأكتفي في الصّفحات التّالية ببعض الاجترار التّأمّليّ. تلك الملاحظات الهامشيّة، التي يُطلَق عليها «الحواشي» في التّقاليد القديمة، تسمح بإنارة النّصّ الذي كتبته السّلطة القائمة، وإظهار اللّغة الكاذبة التي هي سمتها الغالبة.

ذلك أنّ الخطاب الرّسميّ، خطاب السّلطة وخطاب البغبغة الإعلاميّة، يجهد في استخدام مجموعة من التّمثيليّات النّيابيّة لإخفاء الواقع المعيش. لن نكفّ عن القول إنّ ما يسمّى بـ «الامتثاليّة» المهيمنة في المراحل الغاربة ليست سوى أفكار روتينيّة، تلك التي نَصفها في عالم الاتّصال بـ «التّنافر المعرفيّ»، أي ميل، يتعذّر

(27) François-René de Chateaubriand, Mémoires d'Outre-Tombe, t. I, ch. I, (المؤلّف) Paris, Gallimard, 1951, p. 7

إصلاحه، إلى إجلاء الأخبار التي لا تناسب «الدّوكسا»، الرأي الطّاغي.

لنضرب أمثلة على إعادة الكتابة تلك: أوّلًا مصطلح «جائحة»، الذي يشير إلى وباء حاضر في كلّ القارّات. وهذا صحيح. ولكن ألا نخلط بين عدد المصابين، الذين ليسوا بمرضى، وبين مجموع المرضى، الذي يحدّد الوباء؟ ألا نخلط، منذ بداية الحلقة الفيروسيّة بين المرضى والذين ماتوا **بسبب** الكوفيد وبين المرضى والذين ماتوا **في وجود** الكوفيد؟ والأدهى، ألا نلوّح بالمخاوف الأكثر قِدمًا عند الحديث عن أطفال مرضى، والحال أنّه لم يحدث قطّ، وهذا أمر سارّ لا محالة، أن مات أطفال بهذا المرض أو في وجوده؟

لنعد إلى اللّحظات التي سبقت «الجائحة الكبرى». حلقة «السّترات الصّفراء» في فرنسا تذكّرنا بتلك الحلقة الثّوريّة التي مثّلها «الخوف الأكبر»، ثورة الطّبقات الشّعبيّة ضدّ امتيازات النّبلاء والضّرائب والإتاوات الأخرى. لقد ارتجفت الطّبقات الحاكمة أمام الاحتجاج ضدّ رموز النّظام، قوس النّصر والوزارات وحتّى قصر الإيليزي نفسه. لا نستطيع ألّا نرى في ذلك نوعًا من الثّأر من موقف السّلطة من الجائحة: عبارة «نحن في حرب» التي قالها الرّئيس، كنوع من استراتيجيا الوحدة المقدّسة، جاءت لتخنق كلّ مطلب اجتماعيّ.

تلك هي خطّة السّلطة: وضع استراتيجيا خوف ظرفيّ على خلفيّة الخوف البنيويّ، بوصفه النّموذج البشريّ الذي لا يمكن تجاوزه.

بعبارات أخرى بسيطة وكاشفة: «الخوف يمسكنا من أحشائنا[28]». ولكنّنا نوليه أهميّة أساسيّة في الأوقات التي يسود فيها الفقر الرّوحيّ.

ذلك هو الأمر المدوّخ في المرحلة الحديثة: عالم مُحتَدّ يقنع بالإنتاج كي يعيش، والحال أنّه يكفي أن يعيش كي ينتج. لازمة «المقدرة الشّرائيّة»، التي يكرّرها إلى حدّ الشّطط سياسيّون تعوزهم الأفكار، هي التّعبير المكتمَل عنها. لا ننسى أنّ «النّقص يتأتّى من الثّروة» (هايدغر).

في لحظات النّقص الرّوحانيّ تلك، التي خلقتها الوفرة، تحتدّ استراتيجيّة الخوف، مخاوف دوريّة أمام الأمراض والمجاعات والحروب وحتّى زيادة الضّرائب أو الإتاوات. والتّاريخ لا يَعدم أمثلة في هذا المعنى. وكم من ظاهرة معاصرة، ولا سيّما «الكوفيد»، تبيّن ذلك تمامًا.

احتداد الخوف النّموذجيّ ذاك يولّد ظواهر تخلّف. تخلّف في الفكر: رداءة بعض التّحاليل السّياسيّة أو الإعلاميّة شاهدة على ذلك. انخفاض العاطفة والعزلة والتّباعد والحظر الصّحّيّ أمثلة دالّة، دون أن ننسى تناسل شتّى أنواع الفوبيا. في تلك الأوقات صار الخوف البنيويّ هو الخوف من الآخر، وهو ما يؤدّي إلى عدم التّكيّف. صار المرء غير متكيّف مع ذاته، ومع الآخرين ومع العالم أجمع.

من المهمّ في هذا الخصوص أن نلاحظ أنّ عدم التّكيّف ذاك مع

---

(28) Guy Delpierre, La Peur de l'être, Toulouse, Privat, 1974, p. 7. (المؤلّف).

الحياة الاجتماعيّة يسير في موازاة مسخرة معمّمة. القناع والخوف يلتقيان معًا في الغالب، فالقناع يعكس ظاهريًّا الضّيق الجوهريّ الذي يلتمّ خلال تطوّره على الإنسان في الحياة. ليس القناع سوى دفاع واهم ضدّ الخوف. وهو أضمن وسيلة، في الواقع، لنشر الخوف.

الحياة اليوميّة تشبه في تلك اللّحظة كرنفال فينيسيا معمَّمًا، يتلهّى المرء خلاله بإخافة نفسه، لأنّ داخله مسكون بضيق لا يمكن تجاوزه، ضيق طبيعة الأشياء، وهو ما يترتّب عنه، بعبارة لوكريسيوس، أن لا وجود لنهار يعقب اللّيل، ولا ليل يعقبه الفجر «لم يسمع بكاء ممزوجًا بصرخات وليد، رفيقات الموت الأليمة، والمنيّة السّوداء» (**في طبيعة الأشياء**[29]، II، 578).

باختصار، الاسم منفصل عن الشّيء. «الشّيء» في موضوعنا هو شعور بحقيقة التّناهي الذي يجدر التّكيّف معه. كلّ الفنّ هو أن يعرف المرء كيف يعيش موته كلّ يوم، ويضفي عليه طقسًا دون أن يكون مهووسًا به. احتداد الخوف يعكس بالضّبط، في بعض الأحيان، عجزًا عن التّعوّد على ما لا مفرّ منه!

رغم أنّ التّاريخ لا يعدم تجلّيات لما نسميّه «فنّ الموت جيّدًا». إنّها ثيمة «الموت الجيّد» التي عرفت الكاثوليكيّة صياغتها. العبادة المَريميّة لنوتردام دي لا بون مور[30] شاهدة على ذلك. يتمثّل **فنّ**

(29) باللّاتينيّة في الأصل De natura rerum

(30) Notre-Dame de la Bonne Mort: كنائس صغيرة منتشرة في فرنسا (في محافظة اليون Yonne ومحافظة با دو كاليه Pas-de-Calais مثلًا)

الموت[31] ذاك في الاستئناس بالموت بدل إنكاره. نجد هذا الفنّ في عدّة ثقافات، حتّى أنّه يمكن القول إنّه من ثوابت الإنسانيّة.

الشّيء نفسه مع الفنّ الدّينيّ الذي يقوم فيه تصوير النّزع الأخير بمهمّة تربويّة. نكتفي بذكر بعض الأمثلة، إذ يمكن أن نتذكّر عدّة تقفينات للقدّيس يوحنّا المعمدان، ورسومات القدّيس سيباستيان المرميّ بالسّهام، أو القدّيس لورانس على المشواة، دون أن ننسى رافدة مذبح إيزنهايم في كولمار، التي يبلغ فيها تصوير موت المسيح القمم التي نعرف.

يمكن أن نعدّد الأمثلة في هذا المعنى الكثيف، بـ «طبّ تجانسيّ» للتّناهي، بإدماجه في الحياة اليوميّة، وتجنّب استعمال سيّئ للخوف يؤدّي إلى تفكيك الأذهان تفكيكًا يتواصل أثره لمدّة طويلة. المجتمعات المتوازنة لا تنكر الخوف. هي تعرف كيف تعطيه مكانه المناسب في الحياة الاجتماعيّة، وتتجنّب بذلك الآثار المنحرفة. العذارى السّوداوات، صور سالومي بشعر في لون السّبج و«السيّدة فورتونا[32]» وسواهنّ ممّن يغطّي السّواد ملامحهنّ يذكّرن بثابتة إنسانيّة: «سوداء ولكن جميلة[33]»!

تلك طريقة للتّصرّف في الخوف وليس لإثارته. ثمّ إنّ أشغال المؤرّخين تثبت أنّ ذلك الاحتداد يعود بانتظام: ولو استعملنا

---

(31) باللّاتينيّة في الأصل Ars moriendi

(32) Dame Fortune: لعلّ المقصود هنا Tomis Fortuna ابنة جوبتر ومرضعته حسب الميثولوجيا الرّومانيّة، والتي يحتفل الطّليان بعيدها في روما في الرّابع والعشرين من يونيو.

(33) باللّاتينيّة في الأصل Nigra sed pulchra

الاستعارة لقلنا إنّ «زمن الطّاعون» الذي استخدمته السّلطة الحاكمة هو دومًا طريقة لتنظيم سلوكيّات السّواد الأعظم، وبالتّالي إخضاعهم.

«زمن الطّاعون» هو ذلك الذي تكفّ خلاله الحمايات المعتادة عن إحداث تأثيرها، وتصبح بلا جدوى. فالصّلوات والزّياحات الدّينيّة والتّبريكات وحتّى الرّقية والتّعزيم لا تستطيع شيئًا ضدّ الطّاعون. بالكيفيّة نفسها، شهدنا خلال الجائحة تدمير نظام صحّيّ يُفترض أن يؤجّل الموت إن لم يكن قادرًا على استبعاده. أطبّاء المدن، الملاذ اليوميّ عند المرض، أُبعِدوا عن العلاج، ومُنعوا من ممارستهم المعتادة لصالح طوارئ استشفائيّة سرعان ما أُتخِمت. كلّ ذلك أدّى إلى شعارات بالغة المفارقة: لا بدّ من تجنّب العدوى عن طريق التّلقيح لـ «وقاية المستشفى»! وإذا السّلطة، بقصورها عن أداء دورها كدولة حامية، تكشف علنًا عن هشاشتها.

بيد أنّ ما يعلّمنا إيّاه التّاريخ أيضًا هو أنّ استخدام الطّبقات الحاكمة للخوف، خوف خاصّ بمراحل الانحطاط، يؤدّي إلى أشكال من الانشقاق لا رجعة فيها. ما يمكن أن نسمّيه هنا «هرطقة» هو، في الوقت نفسه، علامة نهاية حضارة ومؤشّر على ثقافة جديدة في طور المخاض، ثقافة سوف تتولّى من جديد إدماج الخوف، وتجنّب أكثر ملامحه شرورًا.

إنّ التّمييز بين الثّقافة والحضارة، الذي قلّما يُستعمل بالرّغم من وثاقة صلته، ذو أولويّة هنا. في هذه اللّحظة النّاشئة، تُدمج الثّقافة كلّ عناصر الحياة الاجتماعيّة، بتمامها وكمالها، ويدخل الخير والشّرّ

في تفاعل متواصل ليُساهما، كلّ في مستواه، في التّشابك الإنسانيّ. الحضارة التي تتبع تلك اللّحظة المؤسِّسة ترتكز على فصل ذلك التّشابك. وهو ما رجح أثناء الحداثة، التي تأسّست خلالها مختلف المؤسّسات الاجتماعيّة على «مبدأ القطع». مثل ذلك القطع هو الذي يثير الآن الخوف ويعزّز تبعًا لذلك الهستيريا والهلوسات الجماعيّة، وهذا متواتر في كلّ مراحل الانحطاط.

ينبغي التّذكّر فعلًا أنّ من لم يكن في حيرة فهو أكثر استضعافًا، وبالتّالي فهو خاضع، في تبعيّة تامّة. من المعتاد أن تُجترّ كلمات «جمهوريّة» وقيم جمهوريّة أخرى، ولكن ماذا صارت هذه الجمهوريّة غير «نظام قيصريّ، كما قال شارل بيغي، قيصريّ متعدّد بلجان انتخابيّة» همّها الوحيد إعادة انتخابها؟ ولذلك، هم يرسمون استراتيجيّات الخوف ويلوّحون بشبح الموت.

لا ننسى أنّ التّناهي هو نصيبنا. بنكران ذلك نصنع عالمًا من الزّومبي، أولئك الأموات الأحياء الذين ما عادوا يعرفون الموت، أي هم عاجزون عن الحياة. من هذه الزّاوية، ترتكز عبثيّة السّياسة المترهّلة ودناءتها على ادّعاء إرادة تنظيم السّعادة بأيّ ثمن، وتؤدّي بسبب ذلك إلى «توتاليتاريّة» سبق أن نَعتُّها بـ «النّاعمة»، وهي في الحقيقة ذات قسوة جسيمة: قسوة تجاه الأطفال، الذين يوهَمون باستمرار بأنّهم يشكّلون خطرًا على الكبار الذين يحبّون، وقسوة على الصّغار الذين يعيشون دون بسمة مُطمْئنة من الكهول، وقسوة قصوى تجاه المراهقين والشّبّان الذين تُسرق منهم تلك اللّحظات الأساسيّة من الطّابع الاجتماعيّ والحبّ والصّداقة، التي تؤلّف

توازنهم الكهوليّ.

تلك «التّوتاليتاريّة النّاعمة»، الشّديدة القسوة، ترتكز أساسًا على الكذب، ولكن تجدر الملاحظة أنّ القائد يخدع نفسه حين يكذب. وهذا هو المسار الكلاسيكيّ «للضّغينة» التي تتمثّل في دفع الضّعف الذي يكوّننا جوهريًّا إلى الخارج. وذلك ما يحدث دائمًا في نهاية حقبة تاريخيّة.

كما يلاحظ مونتاني (**مقالات**، الجزء I، الفصلان 17 و22)، يمثّل النّزوع إلى الذّعر لدى الضّعاف في «رؤية فرسان مدرَّعين حيث لا يوجد سوى قطيع غنم»، أو اعتبار «أعواد قصب رَمّاحة»، كلّ الأشياء، حسب مونتاني، تتمّ بفعل «الوغد الأكثر دناءة».

هو تعبير قويّ، ولكنّه يؤكّد مهزلة السّياسة السّياسويّة ومختلف أطرافها. تلك المهزلة، التي هي بصدد التّنامي، تجد مكانها في المحاكاة السّاخرة ومسرحة الشّأن العامّ. وليس جُزافًا أن نشير إلى عدد الوزراء أو النّوّاب الذين ينهون مسيرتهم في «المنابر» التّلفزيونيّة الأكثر تفاهة.

بل إنّه يمكن تحليل الحلقات الانتخابيّة الأخيرة في فرنسا من هذه الزّاوية: إخراج مسرحيّ للخوف لإيقاظ ناخبين في غفوة، بالتّلويح بالخطر الفاشيّ والتّهديد البلشفيّ بالتّناوب. كلّ ذلك يؤدّي إلى كلّ شيء عدا تصويت ثقة: امتناع الأغلبيّة وتناثر الأصوات دون اقتناع حقيقيّ، بعد أن صار مجمل الخطاب السّياسيّ كلمة مسرحيّة، والتّمثيل النّيابيّ الكبير «فُرنًا».

كلّ ذلك يشير إلى غروب البيروقراطيّين ويعلن عن خَوَر

التّوتاليتاريّة الاقتصاديّة، ويشكّل منعطفًا، هو منعطف الدّورات الكونيّة كما يراها الرّواقيّون: التّدمير الدّوريّ تمهيدٌ لإعادة خلق. وكان أولئك الفلاسفة يسمّون ذلك انقضاء[34]. لنتركْ العبارة ونحتفظْ بالفكرة، فكرة انفجار واشتعال: نهاية العالم بواسطة النّار.

ولكنّ ذلك الحريق هو علامة، أو نذيرٌ هاجس، بعبارة باطنيّة، بالمصالحة؛ مصالحة يعاد فيها الخوف إلى مكانه المناسب، حيث يُقبَل، ولكن بالتّوازن مع ضدّه أي فرحة الحياة. ذلك ما تنذر به حركات التّمرّد الشّعبيّة. وليس أمرًا غير ذي بال أنّ عدد التّجمّعات «الوحشيّة»، أو المحظورة، كانت حفلات، «ريف بارتي»، إلخ. أمّا الاستبداد الصّحّيّ، فهو حاضر بشكل جليّ، فقد اتّخذت نخب إعلاميّة سياسيّة مهمَلة الخوفَ من الجائحة وسيلة لإخضاع الشّعب، ولكن عديدة هي المؤشّرات التي تدلّ على خوَر ذلك الاستبداد.

يمكن إذن أن نتكهّن بصيغة من خور الاستبداد الصّحّيّ، الوقح المتذمّر، وتلك سمة الضّغينة، كما بيّنتُ أكثر من مرّة. وكان ماكس شيلر قد أنجز في زمنه تحليلًا من أكثر التّحاليل إنارة[35].

تُصدر السّلطة أوامر تزعم أنّها علميّة، والحال أنّها في معظم الأوقات حماقات مبتذَلة يقدّمها على «المنابر» باحثون من الدّرجة الثّانية! على عكس مسعى علميّ بحقّ، أي يضع في اعتباره الرّيبة

---

(34) باليونانيّة في الأصل εκπύρωσης (إكبوروسيس).

(35) انظر Max Scheller, L'Homme du ressentiment, Paris, Gallimard, 1933. (المؤلّف).

والشّكّ، يعلن أولئك العلماء الأدعياء، المدرّعون أحيانًا بتضارب المصالح، عن ضرورات حاسمة وعارضة في الوقت ذاته. عندما نستمع إليهم، لا نستطيع أن نمتنع عن التّفكير في مونتاني حين يُذكّر بأنّ «الإنسان يخاتل كي يبلغ ضالّته». وهو هنا يخادع غيره ويخادع نفسه.

منطق أفعالهم وتأويلاتهم، ببساطة، هو الكذب. وحقائقهم الهاربة لها هيئة أشباح تحاكي الواقع. عندما يحدث ذلك، يصبح الواقع شبحيًّا ولا ينطبق على أيّ شيء، وتلك خاصّية مراحل الانحطاط.

تلك المراحل تشهد في كلّ وقت ازدهار شعوذات نخبة تحبّ أن تقتات ممّا يسمّيه جان بودريار، في تحاليله الرّشيقة، «مظاهر خدّاعة». مظاهر خدّاعة للطّبقة الحاكمة، تتبارى في الكذب، وتستعمل كلمات لم تعد تتناسب مع الأشياء؛ أكاذيب ذات مزاعم عقلانيّة لا تعرف، ولم تعد تعرف وضع الأشياء في **قالب**، وهو أساس الذّكاء البشريّ نفسه، ولكنّها تكتفي بتشويه الحقائق.

من هنا يتمّ إكراه الرّأي العامّ. والرأي العامّ، بمعناه المحقِّر، أو بمفهومه الطّبيعيّ، وهو ما يسمّيه الإغريق «دوكسا»، لا أذن له كي يسمع. قليلون هم الذين تجاوزوا ذلك الصّمم الغريب، وأحسنوا الاستماع. إنّ ذلك الجهل البنيويّ هو الذي ولّد، عن طريق ذهان هذيانيّ لدى المجتمع الرّسميّ، رعبًا شديدًا في بعض الأحيان.

وكلّ شيء جيّد لأجل ذلك الغرض، مثل حشد فنّانين من شتّى المشارب. ما هي كفاءتهم، خارج مجالهم، في مجال الصّحّة العامّة؟

ورغم ذلك فالمغنّون والممثّلون والكوميديّون يشغلون وسائل الإعلام ويثيرون مناخ حصار، ويخلقون الخوف من الآخر الذي يؤدّي إلى الخوف من الذّات. حتّى صرنا نحلم بأفلاطون، أو الأقرب منّا باسكال وهما يطردان المُسرِحين[36] من المدينة.

الخوف من الآخر والخوف من الذّات يؤدّيان إلى خوف العالم. أليس ذلك ما أسماه بودلير، في قسم **سبلين وإيديال** في **أزهار الشّر**، **عقابَ المرءِ ذاتَه**[37]، تقمّص آلامٍ مازوخيّة يسلّطها على نفسه؟ وهكذا يصبح الإنسان، بعد أن يتلاعب به الكذب المهيمن، ويُضِلّه تزييف الحقائق، «جلّادَ نفسِه»، ذلك لأنّهم خانوا غَناء الواقع وتعقيده.

صحيح أنّ الفنّانين يُرعدون بالتّواطؤ مع الامتثاليّة، ولكنّ الدّينيّ أيضًا يشارك الثّقافيّ في هزيمة جماعيّة، فقد سمعنا ولاءات ماسونيّة تفرض لبس القناع وممارسة التّباعد داخل مجالسها، هذا إن لم تُلغَ أصلًا أو تُعوَّض بـ«مؤتمرات فيديو بلا جسد ولا روح»، وفي ذلك نفيٌ للفكرة الجوهريّة للأخوّة.

لنسجّل ما يلي: لعلّها أوّل مرّة في تاريخ أوروبّا أنّ العبادات مُنعت، وأنّ المرشدين الدّينيّين لم يستطيعوا الدّخول إلى المستشفيات لزيارة المحتضَرين، الذين لم يتمكّنوا من الحصول على سرّ قربان المرضى، وأنّ الأقرباء طُردوا، وأنّ أيّ طقس جنازيّ من أيّ نوع لم

---

(36) Théâtreux: عبارة استهجان تُطلق على الممثّلين والممثّلات الأرديّاء.

(37) L'Héautontimorouménos (وهو عنوان أحد كتبه)، وترجمها بعض الفرنسيّين أيضًا بـ«جلّادِ نفسِه».

يتمّ، فقد مات المرضى وحيدين وسُلّمت توابيت مختومة إلى الأسر التي لم تستطع أن تشارك ألمها.

وبطريقة ضالّة، عوّض بعض الرّهبان الماء المقدّس بهُلام الماء الكحوليّ، لعلّه عقلانيًّا أكثر نجاعة من جهة حفظ الصّحّة، ولكنّه رمزيًّا قليل الحضور؛ يمكن أيضًا أن نذكر خَبرًا يحمل صليبًا مهيبًا، كرمز لموت المسيح، فيما هو يُرغم روّاد ديره بطلاء أيديهم بالهلام، ناسيًا بالمناسبة السّبيل البطيء نحو الموت الذي تمثّله حياة مسيحيّة حقّ. لمثل أولئك الأحبار، ينبغي التذّكير بالصّيغة الجميلة لجان دو سالسبري[38]: «ملك أمّيّ ليس سوى حمار متوَّج[39]»!

عقلانيّة سخيفة تتحوّل إلى آليّة سياسيّة روحانيّة، أي عَلمانيّة دنيويّة؛ وعلى رأي هايدغر، إلى «معاضدة السّلطات الأخرى بسهولة»، سلطات تلوّح بالخوف، وتتخلّى عن الحكمة الشّعبيّة ذات المعرفة المستبطَنة، أي تلك التّقاليد العريقة، التي تنصح بالتّأقلم قدر المستطاع مع التّناهي الإنسانيّ.

بنسيان تلك البدَهيّة الأساس ندخل إلى جحيم العواطف النّبيلة كما حدث في السّنوات الثّلاث الأخيرة، وهو ما يصوغه الرّأي السّليم الشّعبيّ بحدّة حين يعلن: «الجحيم تواكبها النّوايا الطّيّبة». وتلك على الدّوام ممارسة الذين يسمّيهم هيغل «النّفوس الطّيّبة»، التي تملك رؤية أخلاقيّة صارمة، ففي رأيها أنّ المهمّ ليس العالم كما

---

(38) Jean de Salisbury (1115-1180): فيلسوف ومؤرّخ إنجليزيّ، وأسقف كنيسة شارتر الفرنسيّة.

(39) باللّاتينيّة في الأصل Rex illiteratus quasi asinus coronatus

هو، بل ما ينبغي أن يكون، ونحبّ أن يكون.

بيد أنّ منطق «وجوب الكينونة» يجرّ أكثر الآثار شؤمًا، ذلك أنّ كلّ الدكتاتوريّات، أيًّا ما تكن، تنشأ من تلك المسلَّمة التي تدّعي تحسين البشريّة، ولأجل ذلك تنوي بناءها أو إعادة بنائها انطلاقًا من جملة من الأفكار المجرّدة المُملاة، وتتناسى في الواقع أنّ عظمة الوجود تقوم على تطابق الأضداد، تطابق الأفراح والأتراح التي هي نصيب كلّ فرد.

بالتّلاعب بالخوف، والتّلاعب مع الخوف، تعيد الطّائفة الإعلاميّة السّياسيّة خلق ما كانت الدّيانة التّقليديّة تواجهه، أي **الأكيديا**[40]، مرض الرّوح الذي يؤدّي إلى الخذلان واللّامبالاة ويمنع صاحبه من أن يكون على صلة بالمجموعة. ذلك الانعزال يؤدّي إلى نكران العلاقة **الأوّليّة**[41] أي العيش المشترك.

الأمر يتعلّق هنا بعاقبة لا يُستهان بها تشكّل النّتيجة المنطقيّة للجنوح العامّ إلى الكذب، فالماسكون بالسّلطة هم، من هذه الزّاوية، «جهلة» حقيقيّون، يدّعون الانتماء إلى الأنوار والحال أنّهم مُطفِئوها. المواعظ المتملّقة للأوليغارشيا تقتات من «الدّيمقراطيّة» و«القيم الجمهوريّة» والحال أنّها ببساطة ترسّخ التّكنوقراطيّة.

وليس من الأمور القليلة الأهمّيّة أن نشير إلى أنّ استبداد الصّحّة العامّة هو ملك لسلطة لا تحمي الشّعب، ولكنّها بالأساس تحمي

---

(40) Acédie من اليونانيّة akêdia: في التّيولوجيا الكاثوليكيّة، هو مرض روحانيّ يصيب الرّهبان ويتبدّى في شكل ملل ونفور من العبادة وإحباط ومالنخوليا ورغبة في الاعتزال.

(41) باللّاتينيّة في الأصل Primum relationis

نفسها! فقد أصبحت تلك السّلطة غاصبة في الواقع، باسم حماية وهميّة.

في تعليقي على «أسطورة نصير الفضيلة» لفيلفريدو باريتو[42]، بيّنت أنّه ليس أدهى ممّن يريدون فِعلَ خَيرِ الآخرين. في كلّ الأوقات، أدّى حفظ الصّحّة المشطّ والتّعقيم أو «البسترة» المفروضة من فوق إلى آثار أضرّت بالمجتمع في جملته[43].

أضف إلى ذلك أنّ سلوك الاغتصاب ذاك، أيًّا ما يكن تسميته، هو دائمًا بفعل من هم قائمون، أجيال من العجائز في مواجهة أجيال قادمة، يحاولون كبح طاقة شبابيّة تبدو لهم خطيرة.

من بين أمثلة تاريخيّة عديدة في هذا المعنى، يمكن أن نشير إلى تحليل إيمّانويل لو روا لادوري المتعلّق بـ «عقد الشُّريْحة»، وهو تعبير مازح عن عقدة الخصاء التي يمكن أن تُلجم المنطقة التّناسليّة، في حال سِحر أثناء الزّواج. بطبيعة الحال، الأمر يتعلّق بتهديد استيهاميّ بالعجز أو العقم ضدّ أزواج شبّان، وهو تهديد يلوَّح به لإخضاع هواهم الشّبابيّ، وإرغامهم على الامتثال[44].

---

(42) Vilfredo Pareto (1848-1923): عالم اقتصاد واجتماع إيطاليّ.

(43) انظر M. Maffesoli, La Violence totalitaire (1979)K Paris, Desclée de Brouwer

انظر أيضًا La Part du diable. Essai de subversion postmoderne, Paris, Flammarion, 2002, P. 11

انظر كذلك Claudia Antimonelli et Vincenso Susca, Pornoculture. Voyage au bout de la chair, Montréal, Éd. Liber, 2017 (المؤلّف).

(44) Emmanuel Le Roy Laudrie, « L'aiguilette » dans Europe, 1974, P. 134.

انظر أيضًا Jacques Le Goff, Saint Louis, Paris, Gallimard, 1996, p. 113-115 (المؤلّف).

في السّياق نفسه، يذكّر جاك لوغوف بأنّ الضّبّاط الملكيّين، شرطة تلك الفترة، عمدوا إلى مضايقة الشّبيبة الطّلّابيّة «كوسط نشيط، مولِّدٍ لجُنح آدابٍ عامّة [...] وصخب وسكر وغناء وضجيج»، واستخدموا كلّ الوسائل التي بحوزتهم في كبح ممارساتٍ تناهض النّظام الأرستقراطيّ، فتمرّدت تلك الشّبيبة وهجرت هضبة سانت جنفييف[45] لتذهب إلى أماكن أخرى تستطيع أن تعبّر فيها عن حيويّتها الفكريّة والوجوديّة[46].

يمكن أن نعثر على أمثلة عديدة في هذا المعنى، فالأمر يتعلّق ببنية أنثروبولوجيّة حقيقيّة، أي ثابتة في التّاريخ الإنسانيّ. تلك الأمثلة تبيّن الموقف المعاصر للّذين تجدر تسميتهم بـ**أطفال الطّفرة**[47]، وقد شكّلوا جيلًا محتجًّا في تلك المرحلة (نهاية السّتينات)، وأصبحوا الآن في غاية الامتثاليّة. ذلك الجيل، الذي اعتلى السّلطة، وضع كلّ قوانين حفظ الصّحّة الذي أدّى إلى المأزق الذي نعرف.

أولئك الـ«بومرز» يتقمّصون في الواقع هيئة **الأب السّائط** الذي يكبح جماح أطفال مشاغبين. **كوفيديّة، قيظيّة، مراقبتيّة، حصريّة،** إلخ: يمكن أن نعدّد العبارات المولَّدة التي يشكل «عقد الشُّرَيْحة» قاسمها المشترَك، أي إرادة خصاء شبيبة تُعَدّ منحرفة، وحتّى قيادُها إلى الموت. إنّ المحافظة على «الحياة العارية[48]» بعد تخلّصها من كلّ

---

(45) حيث جامعة السّوربون، في الحيّ اللّاتينيّ بباريس.

(46) Jacques Le Goff, Saint Louis, Paris, Gallimard, 1996 (المؤلّف).

(47) Boomers أو Baby-boomers: الجيل الذي رأى النّور بعد الحرب العالميّة الثّانية، في مرحلة امتدّت حتّى أواسط السّتينات وشهدت تفجّرت نِسب الولادات.

(48) انظر تحليل Jean Furtos, Pandémie et biopouvoir: la nouvelle précarité contemporaine, Paris, Éd. de la rue d'Ulm, 2021.

ما يجعل ثراءها العلائقيّ يؤدّي إلى الموت؛ وعدد محاولات انتحار أطفال ومراهقين شاهد على ذلك. طائفة العجائز الذين بأيديهم السّلطة لا يهمّهم شيء من الآثار الوبيلة لوهمهم الصّحّيّ. وبما أنّهم ممثّلون فاشلون، فهم يعرفون كيف يُمسرحونه!

مكتبة
t.me/soramnqraa

انظر أيضًا المرافعة الإنسانيّة للدّكتور لوي فوشيه

Dr. Louis Fouché (entretiens avec S. Chatry), Tous résistants dans l'âme. Éclairons le monde de demain, Paris, Trédaniel, 2021

وكذلك Agonie et renouveau du système de santé, Thervay, Éd. Exuvie, 2022 (المؤلّف).

2

مجتمع الفرجة

الفرجة هي الحلم الرّديء للمجتمع الحديث المقيَّد، الذي لا يعبّر في النّهاية إلّا عن رغبته في النّوم.

غي ديبور، مجتمع الفرجة

يمكن أن نقول عن أهل مجتمع الفرجة إنَّهم يطنطنون أكثر من كونهم يرّجحون العقل[49]! إنّ فكر الحياة الحيّة تحسن إدماج الموت ومداهنته، وهذه ليست حالهم: فهم لا يستحضرون الموت إلّا لإبراز الخوف. حكمة لنابليون، عميقة الدّلالة تلخّص فكرهم ونشاطهم: «بكمانٍ وعرض فرجويّ، يمكن أن نحكم فرنسا.»

بذلك الكمان وذلك العرض الفرجويّ، يمكن أن نفهم العلاقة الحميمة بين الاستبداد الأمنيّ واستبداد الفرجة. كلاهما تعبير عن ذهنيّة حصاريّة تستخدم آلية الفضح مدعومة بالمواعظ وشتّى التّعاليم التي تطلقها الطّبقة الحاكمة.

تلك المواعظ والتّعاليم، كشأن كلّ معتقد، قاسمها المشترك

(49) يورد المؤلّف فعلين لهما نفس النّطق مع اختلاف الدّلالة، الأول résonner، وجذره الصّوت son ، والثّاني raisonner، وأساسه العقلraison .

نكران الواقع، ولذلك تولّد إمّا الذّهول أو التّثاؤب المطلق. والثّابت أنّها جعلت فرنسا، بلد التمّرد المطلق، بطلة نسيان الفكر النّقديّ التي كانت تتزعّمه.

العنصر الأساس في هذا الانحطاط هو استعمال كلمات و«سرديّات»، كما نقول اليوم، غائمة ومنفصلة عن الحياة اليوميّة. في هذا المعنى، لا نكفّ عن التّذكير بالمقولة التي تُنسب إلى أفلاطون: «انحراف المدينة يبدأ بالتّحايل على الكلمات». هل هذه الملاحظة من وضع الفيلسوف أم لا؟ لا يهمّ، فارتيابه المتأصّل من الممثّلين يبرّرها تمامًا.

ذلك أنّ الغشّ هو العنصر الأساس في «التّيوقراطيّة» الحاليّة. لم تعد الحقيقة سوى ذكرى بعيدة، ولم يعد الخطاب العامّ سوى سلسلة من «حقائق متتالية»، يُدلي بها محتالون حقيقيّون خاصّيّتهم أنّهم لا يستقرّون على رأي، بل هم أشبه بدوّارات رياح، بعد أن تسارع المسار.

ولكن ينبغي الإشارة إلى أنّ أولئك «الممثّلين» لا علاقة لهم بممثّلي تراجيديا العصور القديمة، فهم أبعد من تقمّص بعض الوجوه النّموذجيّة البارزة مثل أوديب وأنتيغونا وكريون وأوليس، الذين يجد فيهم كلّ واحد جانبًا من الإنسانيّة، بل إنّهم يمتحون من المسلسلات التّلفزيونيّة، وحتّى من برامج تلفزيون الواقع. ووزير الصّحّة لا يتحدّث باسم أبقراط أو أسقليبيوس اللّذَين نسي قسَمهما على أيّ حال، بل مثل رئيس الأطبّاء في «طوارئ»[50] أو «تشريح

(50) Urgences : سلسلة تلفزيونيّة أمريكيّة، بطلها دوغ روس (جورج كلوني).

غراي»[51]. فرجة أصبحت مقذعة لشدّة رغبتها في محاكاة الواقع!

وهذا يخلق عالم أشباح قليل الصّلة بالواقع. إنّ ضياع العالم الرّمزيّ، عالم العلائقيّة، والحياة المجسّدة، ذلك الذي يسمّيه ميرلو بونتي «لحم العالم»، كان من نتيجته مجتمعٌ تردّى إلى موضوعيّة بسيطة. لا أهمّيّة إلّا للمادّيّ وحده، ذلك الذي يمكن حسابُه. هنا انتصار الاقتصادويّة[52]، التي تشكّل إحالتها الأزليّة على «القدرة الشّرائيّة» شكلَها المكتمل، كنتيجة منطقيّة لمجتمع الفرجة. وكما كانت الإمبراطوريّة الرّومانيّة المتدهورة تستعمل الخبز والسّيرك، استخدمت السّلطة القائمة الخوف، ووزّعت علاوات ومساعدات «مهما كان الثّمن[53]»، متناسية أنّ توزيع المال العامّ ليس سوى إعادة جزء من الضّريبة إلى دافع الضّرائب.

ومن ثَمّ، ظهر في المسرحَة الجارية ذلك التّفخيم الكلاميّ الممضّ، وتلك الإعلانات الرّسميّة السّاذَجة، عن الدّيمقراطيّة والتّقدّم والعقل وما إلى ذلك[54]. قلبٌ للمعنى بامتياز لكون من ينطقون بها يستخدمون ضدّ ما يحتفون به. هنا، كما يذكّر جورج أورويل في رواية «1984»، تكمن خاصّيّة المجتمعات التّوتاليتاريّة حيث **الأخ**

---

(51) Grey's Anatomy سلسلة تلفزيونيّة أمريكيّة بطلتها الدّكتورة غراي، المتخصّصة في علم التّشريح (شوندا رايمس).

(52) Economicisme: نظام تحليل يميل إلى تفسير كلّ شيء (بما في ذلك الأفكار والقيم والمشاعر) من خلال العوامل أو المفاهيم الاقتصاديّة. يُستخدم هذا المصطلح أيضًا، في باب الاستهجان، كما هي الحال هنا، لانتقاد العلوم الاقتصاديّة واعتبارها مجرّد أيديولوجيا.

(53) Quoi qu'il en coûte: جملة قالها الرّئيس ماكرون أثناء الجائحة، ليؤكّد من خلالها أنّ السّلطة ستساعد الشّعب في شتّى القطاعات مهما كانت التّكاليف.

(54) بالإيطاليّة في الأصل Tutti quanti

الأكبر يرقبكم[55].

«وزارة الحقيقة» في تلك الرّواية التّنبُّئِيّة تعلن أنّ «الحرب هي السّلم»، و«الحرّيّة هي العبوديّة» و«الجهل هو القوّة». وكلّ شيء متماثل. تلك «اللّغة الجديدة» هي سمة النّقاشات الصّحافيّة التي يسمّونها الآن «جدل خبراء» أو خطابات سياسيّة منمّقة، دون ذكر خطابات المؤسّسات الاجتماعيّة أو البيروقراطيّات الثّقافيّة والمؤمنة.

الأمر الأساس لمصير الفرجة الحاليّة هو التّوقّف عن قراءة الكتب، والاكتفاء فقط بالصّحف وسوف تقول الإذاعات ومختلف «المنابر التّلفزيونيّة» كتبًا. وهذا يؤدّي إلى قراءة مخدِّرة، تلغي الذّكاء والفكر النّقديّ والإرادة. في الواقع، الفكر نفسه هو الملغى، أي ملكة الفهم والتّصرّف عن دراية.

إلغاء الفكر ذاك يتحلّى ببهرج فلسفيّ، فمن العادة أن تستشهد الخطابات الصّحافيّة بهذا الفيلسوف أو ذاك الأكاديميّ. بل وصل الأمر إلى حد إعلان رئيس الجمهوريّة أنّه كان مساعد فيلسوف شهير. ذلك المعطى من الدّرجة الثّانية، وهو في الغالب وليد «جذاذات قراءة» ينشرها معهد الدّراسات السّياسية ومخابر أخرى لإعداد النّخب التي هي في السّلطة، يمكن أن نطبّق عليه ملاحظة إيراسموس اللّاذعة في **مديح الجنون**: «سترون أنّه لم يوجد قطّ أمراء أشدّ شؤمًا من الذين تسلّوا بدراسة الفلسفة». وإنّها لتسلية تلك التي تسود من لا يميّزون بين «العالِم والسّياسيّ» ويخلطون بين النّضال والعلم. تلك التّسلية هي الأشدّ ضررًا لأنّ السّلطات

(55) بالإنجليزيّة في الأصل Big Brother is watching you

العامّة ستتحلّى، بمساعدة الصّحافيّين، بإهاب العلماء كي تفرض على الشّعب، الذي لا يقدر ولكن...، أكثرَ الإخضاع شموليّةً مستخدمة حججًا تدعو إلى العقلانيّة والحال أنّها قليلة التّطابق مع العقل.

ولفهم خطر المسرحة الإعلاميّة السّياسية الجارية، اسمحوا لي أن أستشهد بمقطع قصير من كتاب لأفلاطون: «تياتروقراطيّة فاسدة عوّضت سلطة أفضل القضاة [...] كانوا يحسبون أنفسهم علماء، وغياب الخشية ذاك ولّد السّفاهة[...] سفاهة مقيتة» (**القوانين III**، 701 أ).

تلك ملاحظة صائبة للغاية ولها تطابق عجيب مع الرّاهن! فمثل تلك السّفاهة تنبعث في التّواريخ الإنسانيّة بانتظام. حسبنا أن نركّز انتباهنا، ولو عرَضًا، أو أن نصغي إلى الأوامر السّياسيّة لندرك بسهولة بهتان ما يُعلن عنه أو يُقدّم كضرورة لا محيد عنها.

في تلك الأوقات، كلّ شيء ينشأ من الإخراج المشهديّ، بمؤثّرات تخالف الواقع، وتتكفّل الإشاعة بتضخيم ذلك النّوع من الأخبار. الأسلوب مترهّل: عوض إضافة موتى هذه القضيّة أو تلك إلى مجمل الموتى بشتّى الأسباب، نضع أولئك الموتى في مواجهة حياة بلا موت، وموت للموت. هذه الحالة من النّكران التّامّ للموت والعذاب هي التي تبرّر ضرورة الخضوع لتعقيم متزايد، وتطهير معمّم في الحياة الاجتماعيّة. تلك الحركة تضرب بجذورها في العِلمويّة التّقدّميّة للقرن العشرين؛ فقد تمّ بالتّناوب وصم السّلوكيات المنذرة بالخطر، كالتّدخين وإدمان الكحول والأكل

الغنيّ جدًّا بالحريرات وقلّة الحركة، إلخ.

للفرجة أثر «متنافر» إذ لا تتطابق مع نظام الأشياء والقوانين الطّبيعيّة التي هي تعبير عنها. لنُعد ما قلنا، إنّها تناقض مسألة تمييز حياة وصحّة المسنّين عن صحّة الأطفال والشّبّان. في المقابل، من الهمجيّة أن نترك المسنّين «يموتون في ركن» دون إحاطتهم بطقوس رحيل ومراسم جنازيّة.

ولكن بما أنّ تلك «التّياتروقراطيّة» صارت مهيمنة، تمثّل الخطاب السّياسيّ، بل تقوم مقام العمل السّياسيّ، فإنّ لها آثارًا مفارقة: ملّ «المتفرّجون»، وما عادوا على أيّ حال يصدّقونها أو يولونها أهمّيّة.

وهذا متأتّ ببساطة من كونها لم يعد بوسعها أن تخفي أنّ في أعماق المراحل الغاربة ينبثق الانشقاق الحقيقيّ. نقولها بتعبير مألوف: «واصل الحديث، فأنت تثير اهتمامي!» أو «هذا يدخل من أذن ويخرج من الأخرى»، وهو ما يعبّر شعبيًّا عن حقيقة مفادها أنّ الشّعب ما عاد يستسلم للخداع.

الامتناع عن التّصويت في مختلف عمليّات الاقتراع هو أيضًا، بالتّأكيد، تعبير مضادّ لمسرحة الشّأن السّياسيّ. وبسبب الانحطاط، صارت الحياة الاجتماعيّة في بعض الأوقات تثمّن القرابة بين الطّاغية والمُهرّج: عندما يبالغ الطّاغية في الظّهور، ويصبح غشّه جليًّا، تبرز صورة المهرّج.

لتصوير عاقبة تلك المسرحة السّياسيّة، يمكن أن نذكر صورة «عفريت» فيولّيه لو دوك[56]، في أعلى واجهة نوتردام بباريس، وهي

(56) Eugène Viollet-le-Duc (1814-1879): مهندس معماريّ فرنسيّ.

الصورة المعروفة أكثر من سواها في «رواق الأوهام»، وكانت حسب الميثولوجيا الشّعبيّة تطلق صيحات حادّة أو صافرة كي تعبّر عن اعتراضها. يمكن تخيّلها وهي تتسلّى بالنّظر إلى الإخراج السّياسيّ المعروض تحت قدميها.

يمكن أن نرى هنا استعارة القوّة الشّعبيّة وهي تستهين بالتّمثيل الدّيمقراطيّ المزعوم، وبالأحرى قوّة تمارس ضدّ تلك التّمثيليّة النّيابيّة لعبةً مضاعفة: ازدواجيّة خضوع ظاهر وانفصال حقيقيّ. هرير الأوليغارشيا يوجد هناك، بل هو كلّيّ الحضور. يكرّر حتّى الغثيانِ[57] نفس السّرديّة، وعناصر الكلام التي لا تتغيّر والمتكّررة على الدّوام، ولكن ما عاد أحد يُرعيها سمعه.

في هذا تُعتبر الفرجة «حلمًا رديئًا» كما لاحظ غي ديبور، و«تسلية» حسب باسكال، تجعلنا نهرب من الحياة الواقعيّة، أي الحياة والموت؛ أو «مظهر خدّاع» يمثّل، حسب جان بودريار، أسّ مجتمع استهلاكيّ يسود فيها المتاع والقدرة الشّرائيّة كشكل مكتمل لحياة مستلَبة، أي غريبة عن ذاتها.

ولكنّ تلك التّياتروقراطيّة بأشكالها المتعدّدة، كما سأفصّل القول فيها لاحقًا، لا تني تثير التمرّد، ولا سيّما في صفوف الشّباب الذين، إذ نذروا حياتهم لأهداف أقلّ ماديّة، لا ينسون تلك الغريزة الرّوحانيّة، أساس الحفاظ على الذّهن. ولذلك ما عادوا يميلون إلى عبادة الأوثان التي تمثّلها المسرحة المتواصلة للمجتمع الرّسميّ. وهو ما يذكّرنا به توما الأكويني، الذي لاحظ بطرق متعدّدة،

(57) باللّاتينيّة في الأصل ad nauseam

مستأنسًا بكتاب «أسئلة في السّياسة» لأرسطو والمشاكل المطروحة في المدينة-الدّولة، أنّ «المظهر الخدّاع يمثّل شيئًا له حقيقة مادّيّة، ولكن ليس كرامة أخلاقيّة»، مضيفًا: «سفر الخروج يذكّر بأنّنا ينبغي ألّا نفتتن بالمظاهر الخدّاعة[58]».

ذلك أنّ الفرجة تثير آليّات الافتتان العارضة، كما هو شأنها على الدّوام. التّنويعات المتتالية للسّياسيّين وعملائهم الصّحافيّين ذات دلالة في هذا الخصوص، فهي تمثّل خصوصيّة «التّياتروقراطيّة». حسب الظّروف، نمارس دورًا مختلفًا، والدّور في بنيته متغيّر. ومن ثَمّ، فإنّ بنية الفرجة انقلاب محتمل، وحتّى نكران.

ثمّة كتاب رائع لِغي هوكنغيم يصوّر جيّدًا مسعى الارتداد المسرحيّ ذاك، إذ يمثّل كتابه **رسالة مفتوحة إلى من انتقلوا من ياقة ماو إلى روتاري** إدانة ملائمة لارتداد القادة اليساريّين السّابقين. وقائمة الأسماء دالّة. وإن عفا على بعضها الزّمن، فبعض نشطاء ثمانية وستّين[59] ماتوا. ولكن اللّافت أن نرى كيف لا يمنع الارتداد الخطب المتبجّحة، والادّعاء الدّغمائيّ، بل إنّ تلك خصوصيّة «أسلوب المتنكّر لمبادئه» أو رغبة الامتثاليّة.

العالم يواصل سيره. ما ينبغي ملاحظته، أنّ الدّغمائيّة المسرحيّة لا تزال راهنة. وهي بفعل أولئك الذين قُدّر لهم أن يختاروا الإنكار باستمرار. والممثّل الرّديء في جوهره «متفاخر»، هاوٍ مريب، يحاكي العلم والمعرفة، ويضفي على نفسه أبّهة، ويدّعي ما ليس فيه.

---

(58) Saint Thomas d'Aquin, Somme théologique, IIè, qu. 94, art. 2. (المؤلّف).

(59) Soixante-huitars: الذين ناصروا الأحداث الطّلّابيّة في فرنسا، في مايو 1968.

أطبّاء لا يعالجون، «علماء» لا ينشرون، ولكنّهم يقضّون أوقاتهم في الإذاعة، أو في مناقشات تلفزيونيّة، خبراء في شتّى المجالات باستثناء المجال الذي يتحدّثون فيه، كلّهم يقنعون بإعادة تأهيل نفس اللّازمات الزّنخة نوعًا ما. أولئك هم شخصيّات «المقهى التّجاريّ» المعاصر. تلك هي الصّفعة، إن جاز القول، لساسة في عرض فرجويّ. بذلك يتكرّس استبداد الفرجة الإعلاميّة السّياسية، التي تستعمل بحوثها المزعومة لغة مرعبة، والتي مهمّتها الأساس هي التّلاعب بالرّأي العامّ بطريقة إرهابيّة.

ذاك التّلاعب الذّهنيّ المطلق تثيره صحافة مأمورة، تهرف بلا نهاية وبطريقة أحاديّة البعد بعض الأفكار العامّة، باهتة «العِلمويّة»، إلى أن تجعل مقبولًا لدى الأغلبيّة ما لم يكن كذلك حتّى تلك اللّحظة. فالأغلبيّة، وقد أجبرت على الصّمت والمصادرة، صارت منذئذ خاضعة لما يُقدَّم بوصفه أمرًا مشروعًا وطبيعيًّا.

عضو لوبّي معروف اقترح صورة عن الكوى الغريبة تتحوّل إلى «نوافذ أوفرتون[60]» الشّهيرة، التي تجعل بالتّكرار المتواصل المستحيل ممكنًا، واللّاعقلانيّ عقلانيًّا تامًّا. ينبغي العودة هنا إلى تحليل هاربرت ماركوزه الذي بيّن أنّ «الإنسان الأحاديّ البعد» هو نتاج قوى قامعة تستند إلى تكنولوجيا متطوّرة[61]. النّماذج الرّياضيّة

---

(60) نافذة أوفرتون استعارة تحدّد مجموعة الأفكار أو الآراء أو الممارسات التي تعتبر مقبولة إلى حدّ ما لدى الرّأي العام. وتُنسب إلى الأمريكيّ جوزيف أوفرتون (1960-2003) رئيس مساعد سابق لمركز ماكيناك للسيّاسة العامّة.

(61) Herbert Marcuse, L'Homme unidimensionnel (1964), Paris, Ed. Minuit, 1968 (المؤلّف).

الخالصة التي يستعملها علماء الجوائح في استهتار تامّ بتعقّد الكائن الحيّ ترسّخ ذلك التّلاعب حين تزعم أنّها تُخفّف حِمل الحياة. لنتذكّر تلك المقولة التي تردّدها الإعلانات الإشهاريّة (التّربويّة المزعومة) للحكومة، «يمكن أن نناقش كلّ شيء باستثناء الأرقام»، والحال أنّ النّمذجة ليست سوى تمثّل رياضيّ حسابيّ لحقيقة حيّة لا تخضع كلّ مكوّناتها إلى معادلات، ولو كانت معقدّة. وقد أوضح عالم الرّياضيّات فانسان بافان[62] أنّ النّموذج القاعديّ الذي استند إليه السّاسة كي يأمروا خاصّة بالحجْر وتعميم الخوف هو تضليل رياضيّ. فالتّياتروقراطيّون يحمون الشّعب من خطر وهميّ يمسرحونه بأنفسهم.

كذلك أيضًا يعمل الإشهاريّون، الأقلّ نزاهة فكريّة، باعتمادهم على ما يسمّونه «علم» الخبراء. وهم بذلك يستعيدون ما كان عليه «الطّغيان المستنير» الذي يقوم على دكتاتوريّة عقل يُتّخذ قيمة حصريّة. مثل ذلك الطّغيان، المنبعث بانتظام، يحسب أنّه يمثّل الإنسانيّة قاطبة، والحال أنّه، في أغلب الأوقات، ثمرة أكثر الاستئثار ضيقًا.

كذلك تنشأ ثقافة الخوف، بمساعدة التّكنولوجيا، حيث لا تترك تعليمات لتوضيح العمليّات مجالًا للاختيار. ومثال الطّبّ مذهل بشكل خاصّ، ولكن يمكن ذكره في عدد من المجالات والقطاعات: المدرسة، تنظيم المدن، العمل الاجتماعيّ، إلخ. في كلّ

(62) Ariane Bilheran, Vincent Pavan, Le débat interdit, Langage, Covid, Totalitarisme, Paris, Trédaniel, 2022 (المؤلّف).

مكان، عوّضت الاستجابة إلى «البروتوكول» التّفكير الشّخصيّ. ينظر الطّبيب إلى شاشته ويُدرج فيها عبارة «نفسُه[63]» دون أن يلمس المريض أحيانًا، وعن بعد في الغالب، بكشف عبر الفيديو، فما عادت البروتوكولات قائمة على التّجربة بل على تعداد مختلف ومتنوّع، إذ إنّ القوانين والمراسيم والأوامر القانونيّة، الواجب اتّباعها حذر العقوبة، عوّضت وصفات الطّبيب وتوصياته. هو تشريع فزع، كنتيجة منطقيّة لنوع من الهوس الجنونيّ. ينبغي مطاردة شيطان الشّرّ، حتّى ولو كان، بل خاصّة إذا كان محض وهم!

جان دولومو يقدّم عدّة أمثلة تاريخيّة عن ثقافة الخوف تلك: التّبليغ عن ساحرات، نساء شرّيرات أو يهود مشنَّع بهم، براءة بابّويّة للكاثوليك، وصواعق سينودُسيّة[64] للبروتستانت، تلك كانت صحافة ذلك العصر «التي تسمح للحكم المطلق بتعزيز نفسه[65]». في كلّ الحالات المدروسة، يتعيّن التّركيز على وشك الخطر، بالاستناد، في أغلب الحالات، إلى الإشاعة وشيطنة الذين يحاولون الهروب من الامتثاليّة السّائدة.

ومن اليسير جدًّا أن نقارن ذلك بالوضع المعاصر، فالأوامر والإدانات أو حرمان أولئك الذين يحاولون تجاوز البعد الواحد رائجة رواجًا كبيرًا كما كانت الوشاية، في «زمن الطّاعون»، سيّدة

---

(63) Item : نفس الشّيء في إشارة إلى ما سبق في القائمة.

(64) Synodale: نسبة إلى السّينودس synode أي المجمع الكنَسيّ.

(65) Jean Delumeau, La Peur en Occident, 15è-18è siècles, Paris, Fayard, 1978, p. 352

انظر أيضًا صفحتي 273 و305. (المؤلّف).

الموقف. الرّأي يعوّض الواقع، لا سيّما أنّ صعوبة فكر أصيل ليست في رؤية ما نراه عادة، وإنّما في التّفكير بأكثر دقّة ممكنة في ذلك الشّيء الذي يراه الجميع، ولا يقدرون على قوله.

أذكّر: المسلّمات النّظريّة، مسلّمات المعتقدات الجاهزة، لا تسمح برؤية ما هو حقيقيّ، ما «يجهر النّظر». المثقّفون المزعومون ينحبسون في عالم هرمسيّ منغلق على نفسه، وهو ما لا يسمح لهم بإدراك الواقع، وفهم قوّة الذّهن وقوة الخافي.

الفكر الأصيل، المستند إلى الحكمة الشّعبيّة، لا يتغذّى بـ«فاست فود» التّأمّل، أي المعتقد. عندما نسمع «لا بدّ من كلّ شيء لصنع عالَم»، أساس تشابك الشّعب، ندرك أنّ التّساؤل الهرطقيّ، فيما وراء الطّائفيّة العقديّة، هو «الرّحيق المصفّى» لفكر حاذق ذي فروق دقيقة.

ذلك ما يَصعب على هواة التّرّهات فهمُه. كشأن ما نسميّه، في التّقليد الأنَسيّ، رأس ميّت[66]، رأس لم يعد له ذهن، ولا يمكن إذن أن نجني منه أيّ شيء.

ولكن، حتّى وإن لم تستعمل الحكمة الشّعبية تلك العبارة، فإنّها تعرف، عبر تقاليدها العريقة، أنّ المعتقد وحده هو الذي لا يمكن نكرانه، أمّا الحقيقة، فقابلة للإنكار. وتعرف أيضًا أنّ الملمح المضايق لمثل ذلك المعتقد العلميّ، والأفضل أن نقول «عِلمويّ»، شاهد في أغلب الأوقات على جهل فادح: فالعلم الحقيقيّ يضع نفسه دائمًا موضع مساءلة، بحسب التّغييرات التي حدثت انطلاقًا من

(66) باللّاتينيّة في الأصل caput mortuum

التّساؤل المستمرّ الذي تفرضه الحياة الحيّة.

أمام العقل الذي حبسته العلائقيّة الحديثة، حتّى بات ضامرًا، عرفت «الواقعيّة» الشّعبيّة، التي نظّر لها أرسطو والقدّيس توما الأكويني، كيف تكمّل نفسها بالخيال. ذلك هو «العقل الحسيّ». بمعناه القويّ هو معرفة التّعجّب. لنذكّر بأنّ بومة مينيرفا[67] كانت دومًا مخطوفة البصر. تنظر إلى العالم بعينين جاحظتين من وقع المفاجأة، هذا العالم الغريب والعجيب. ذلك التّعجّب هو الذي يُعوز الصّحافيّ الضّجر الذي يملك جوابًا قبل كلّ نقاش.

أليس أولئك الذين يسمّيهم باسكال «أناسًا فيما بينهم» لا يعرفون ما يريدون ولا ما يفكّرون فيه، لأنّهم ببساطة لا يملكون أيّ فكرة عمّا يجدر أن يراد أو يُفكَّر فيه؟ يعرفون كلّ شيء، والأمثلة غزيرة في هذا الباب، لأنّهم يقنعون بالامتثال للموضة السّائدة، تلك التي أقرّتها هيمنة اللّحظة، ولا يستطيعون مراجعة أنفسهم لكونهم عبيدًا مندفعين.

ملاحظة مازحة لباربي دورفيّيه في **العشيقة العجوز** تلخّص جيّدًا المصلحة والخطر اللّذَين تمثّلهما الصّحافة المدجَّنة: «صحافيّون، أَفطار لذيذة حين لا تكون سامّة، إذ اقتُلعت مساء أو صباحًا من دَمال هذا القرن». وهذا صحيح أنّ الصّحافة، إذا كانت مدجَّنة، تشجّع تنفّج الامتثاليّين والخضوع الذي يميزّ العجائز السِّقام.

---

(67) Chouette de Minerve: مينيرفا في الميثولوجيا الرّومانيّة، هي إلهة الحكمة ورمزها البومة. وفي وقت لاحق أصبحت تلك البومة أيضًا رمزًا للحكمة والفلسفة.

باختصار، عجز كلّ وارد، عجز الـ «بوبو[68]» التّقدّميّين الذين يملكون قبل كلّ شيء الميل إلى الرّداءة والهوس بالرّوتين.

من المضحك أن نرى الصّحف، والحصص التي يقال عنها مرجعيّة، ونشرة المساء الإخباريّة، والصّحافة العامّة وحتّى الصّحافة الجهويّة بلا استثناء تقريبًا تردّد «سرديّة» السّلطة، سرديّة الخوف وعقل عقلانويّ. إنّها البغبغة، والأولويّة لتكرار **الدّوكسا**، دون جرأة أو خيال، وذلك ببساطة تامّة، لأنّ الرّداءة المعاصرة سيّدة الموقف! تلك الرّداءة تقوم على غباء اللّحظة، وهو ما يميّز المشية المترنّحة لأولئك الذين يسيرون دون عَصَوَين هما الرّشاد والعقل القويم.

نتذكّر عبارة جوزيف دو ميستر الفظّة وهو يدين ما أسماه «وغد علية القوم»، موجّهًا اتّهامه إلى الذين لا يعرفون الرِّفعة، ويقنعون بتناول مشاكل «المجتمع الرّاقي» في مدار محدود حول الاقتصاد والانفعالات الوقتيّة. أليس ذلك هو ما نراه في الهستيريا الأمنيّة أو التّحليل المبتور للنّزاعات الأوروبّيّة الحاليّة؟ فعلًا، مبتور هو كلّ تحليل أحاديّ البعد يرى أنّ الخير في جانب والشّرّ في جانب آخر، أو أنّ هذه المدرسة تمتلك الحقيقة وتلك لا.

الثّابت أنّ ذلك الادّعاء المتعالي يندرج في «عصر صفحة المنوّعات» (هرمان هيسه) المتمثّل في تياتروقراطيّة ناجزة. وليس جُزافًا أنّ عبارة «حَلبة» تُستعمل لتلخيص مكان الجدل المعنيّ

(68) Bobo : اختصار لعبارة «البورجوازيّ البوهيميّ». وقد شاع استعماله منذ مطلع هذا القرن.

وشكله. حلبات مسرح حيث أولويّة **النّقاش**[69] أقلّ أهمّية من التّأكيدات التي تُطلق بكيفيّة ساذجة ودعيّة في الوقت ذاه، ويتمّ ذلك دومًا على المستوى نفسه. بغضّ النّظر عن المعرفة الحقيقيّة (يولَد مع[70] ما يصف)، يظلّ كلّ واحد حبيس الحدود الضّيّقة لمعرفة مجرّدة. بالرّضى عن النّفس في خصومات كلاميّة، والانتشاء بالدّسائس والنّمائم، تكون الغاية الاقتناع بنزاعات تَصدُّر عديمة الجدوى، وتلك، لا ننسى، هي الخاصّيّة الأساس للمسرحة الإعلاميّة.

الذّعر الرّهيب الذي تولّده يقابله الزّحام الفكريّ الخاصّ بالمواقع الاجتماعيّة. الثّقافة السّيبرانيّة، بمدوّناتها ومنتدياتها، من تويتر وإنستاغرام، تمثّل بديلًا عن الصّحافة المسمّاة بـ **مانستريم**[71]، تمامًا كما كانت تمثّله المطبعة في عصرها في علاقتها بالنّسّاخين والمزخرفين في العصر الوسيط. سنعود في موضع لاحق على الملمح المستقبليّ لتلك المواقع.

يمكن القول من الآن إنّها تستخدم ما أسماه كارل شميت «خطابًا تمثيليًّا[72]»، خطابًا لا يقضّي وقته في النّقاش والحجاج والطّنين، بل يطرح النّقائض الحيويّة، التي هي ميزة تشابك المتناقضات[73]، ذلك الواقع المعقّد الذي هو فعلًا الحياة المعيشة حقًّا. وبذلك يعتنق مثل

---

(69) باللّاتينيّة في الأصل disputatio

(70) باللّاتينيّة في الأصل cum nascere

(71) بالإنجليزيّة في الأصل mainstream ثقافة الجمهور العريض.

(72) Carl Schmitt, La Visibilité de l'Église, Paris, Éd. du Cerf ; 2011, p. 72 (المؤلّف).

(73) باللّاتينيّة في الأصل complexio oppositurum

ذلك الخطاب حركة الحياة. أليس ذلك موقفًا علميًّا حقيقيًّا: ألّا نُظهر مسبّقًا ما ينبغي أن يكون، بل نُظهر ما هو كائن، ونقدّم الواقع، بكلّ بساطة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

3

عن التّآمريّة

قليلون هم الذّين يحسنون التّفكير ولكنّ الجميع يريدون أن تكون لهم آراء.

شوبنهاور

توجد أوقات يمكن أن نلاحظ أثناءها طاعة غريبة للـ**دّوكسا**، ذلك الرّأي الخالي من كلّ أرضيّة فكريّة. إنّها ظاهرة متكرّرة لما أسماه لا بويسي[74] «العبوديّة الطّوعيّة». في أغلب الأوقات، تتجمّل تلك **الدّوكسا** باستعارات علميّة مزعومة لتصبح، بتناقض في المصطلحات[75]، **دوكسا** عالمة. فأيّ «علم» يملك علماء الجوائح المرتَجلون، أولئك الجنرالات المتقاعدون، وغيرهم من فلاسفة الصّالونات، الذين يأتون لملء أوقات فراغهم، ويقدّمون إحساسًا (أُلِحّ على «إحساس» هذه بمعنى حكم) حول وباء مُعدٍ، أو نزاع جيوسياسيّ أو معنى الحياة بوجه عامّ؟

---

(74) Étienne de La Boétie (1530-1563): رجل قانون وشاعر وكاتب فرنسيّ نال شهرته عن كتابه المذكور أعلاه، الذي يثير فيه مدى شرعيّة أيّ سلطة على شعبها ويحلّل أسباب خضوعه.

(75) باللّاتينيّة في الأصل contradictio in adjecto

نقدُهم المجانب للصّواب والمتعالي دوْمًا يشبه كثيرًا جدل المقاهي الخاوي. لنذكّر بأنّه لا يمكن أن نحلّ مشكلًا بغمغمة بضع كلمات طائشة وغير منطقيّة، خصوصًا إذا كانت تردّد كذبة أو مبالغة لعلماء من الدّرجة الثّانية. علماء بأعداد كبيرة في الظّرف الحاليّ، نظرًا للحفاوة التي توليها وسائل الإعلام لتوقّعاتهم الكارثيّة. لنذكّر بأنّ علماء الجوائح هم في الحقيقة خبراء إحصاء يطبّقون نماذجهم على وضعيّات دلّها إليهم علماء البيولوجيا والفيروسات والأمراض المعدية والأطبّاء السّريريّون عمومًا. ويمثّلون، حتّى التّسعينات، أدنى التّخصّصات الطّبيّة مقامًا، ثمّ صاروا يحتلّون الصّدارة في التّصرّف الرقميّ للتّأمين الصّحّيّ، منذ غزا التّعاملُ الحسابيّ المستشفى وطبّ المدينة، في محاولة يائسة «للحدّ من مصاريف الصّحّة عن طريق تحكّم في التّطبيب».

ملاحظة مازحة للفيلسوفة سيمون فايل تؤكّد العلاقة الوثيقة، في بعض الأوقات، بين العلم والمناخ العامّ: «العلماء أيضًا خاضعون للموضة، فهي أقوى على العلم من شكل القبّعات. يكاد الرّأي الجمعيّ أن يكون سيّدًا عليهما معًا[76]». الذين يحبّون القبّعات سيعرفون كيف يقدّرون هذه الملاحظة حقّ قدرها! بصرف النّظر عن المزحة، فهذا يبيّن عدم الاهتمام في الواقع بالوقت التي يضيّعه

(76) Simone Weil, La Personne et le sacré, Paris, Éd. Allia, 2020, p. 22
انظر أيضًا الكتاب التّنبّئي لصدقتي الرّاحلة الأنثروبولوجيّة الإنجليزيّة الكبيرة ماري دوغلاس
Mary Douglas, Ainsi pensent les institutions, Paris, Éd. Usher, 1989 (المؤلّف).

أولئك الخبراء التّافهون، الذين يكلّفون أنفسهم عناء كبيرًا للنّطق بحماقات كبيرة، لأنّ الوقت الضّائع هو وقت الرّأي العامّ الذي ينطلي عليه تعميم[77] مبتذل من أدنى درجة. ونحن نعرف أنّ كلّ شيء يُعمَّم ويُبتَذَل.

العلمويّة المعلَنة في التّمسرح الإعلاميّ ليست في النّهاية سوى تعميم غير مهضوم، وبالأحرى غير قابل للهضم. ولإخفاء كلّ ذلك وُضع في المقدَّمة خطر التّآمريّة، الذي يبرز بانتظام حين تحسّ نظريّةٌ دغمائيّة بأن تطوّرها مهدَّد بحياة واقعيّة. لا بدّ أن نشير إلى أنّ استراتيجيّة الخوف تلك هي التي غالبًا ما تولّد التمرّد في النّهاية. سبق أن حلّلتُ ذلك ولا بدّ أن أعود إليه لاحقًا.

لإخفاء تداعي أنشطتها، وبالأحرى جمودها، تنشئ السّلطات العامّة لجانًا خاصّة مهمّتها الأولى التّلهية وتسلية النّاس، وأعضاء تلك اللّجان هم دومًا «مثقّفون مزعومون» مدجَّنون، قايضوا قدرتهم النّقديّة (الميزة الأولى للمسعى الثّقافي) بطبق عدس لا قيمة له.

عند الحديث عن التّآمريّة، ينبغي، في رأيي، التّمييز بين زمنين: التّآمريّة المعاصرة، تلك التي أجاد وصفها كتاب رفائيل جوسّيه[78]، واتّهام القائلين بـ «الحقيقة الرّسميّة» للعلم بوصفه مجموعة قناعات لأشخاص يشكّون ويحتجّون على تلك الحقائق.

---

(77) المقصود بالتّعميم هنا Vulgarisation هو جعل المفاهيم والحقائق في متناول الجميع.

(78) Raphaël Josset, Complosphère, l'esprit conspirationniste à l'ère des réseaux, Paris, Lemieux, 2015. (المؤلّف).

التّآمريّون الحقيقيّون هم ورثة من يصدّقون «بروتوكولات حكماء صهيون»، ويعتقدون أنّ مجموعة صغيرة من الرّجال يسيّرون العالم: قوى الشّرّ، الإيلّوميناتي، الماسونيّون، البنك اليهوديّ، إلخ.

إنّ ظهور مثل تلك النّظريّات التّآمريّة يعكس حاجة إلى تنظيم العالم مانويًّا، واستعادة نوع من التّسامي، أمّا إدانة التّآمريّين، بتأكيد ميزتهم المضحكة في الغالب (الأرض مسطّحة!) فالهدف منها إلغاء النّظريّات العلميّة أو الممارسات البديلة. هذا التّطوّر هو خاصّيّة مراحل الأزمة: الثّورة الفرنسيّة، الحربان العالميّتان، أحداث 11 سبتمبر، إلخ. هي بالضّبط أوقات يسودها التّشظّي المجتمعيّ، وبالأحرى هي أوقات يهتزّ خلالها النّظام الذي يوحّد أمّة: السّلطات الثّلاث[79] للنّظام القديم، نهاية الحرب الباردة، نهاية المعارضة يسار/ يمين، العولمة. ما يميّز «المناهضين للتآمريّة»، أولئك الذين يفضحون الأخبار الزّائفة، أنّ الكراهيّة هي التي تنوب عن جدل يمكن أن يكون حاميًا ورفيعًا. ومن اللّافت أن تقتحم تلك الكراهيّة بقوّة النّقاشات الإعلاميّة وحتّى الجدل البرلمانيّ.

ومن ثَمّ، صار كلّ من لا يرضخ للرأي المهيمن (تافهًا أو عالمًا) يُنعَت بالتّآمريّ، وتتمّ إدانته، علاوة على تهميشه في المؤسّسات الرّسميّة والإعلاميّة. كذلك كان مصير البروفيسّور ديدييه راوولت، الذي طالما امتُدح بوصفه عالمًا ذا شهرة عالميّة، قبل أن يُرَدّ إلى وضعِ دجّالٍ تقريبًا. تلك الارتدادات تتمّ عبر مسارات أوسع،

(79) الإكليروس، النّبالة، والطّبقة الثّالثة (البورجوازيّون، أهل الصنائع والحرف، العمّال والمزارعون)

هدفها الوحيد حماية الشّعب من «عدوى» فكر هرطقيّ، لأنّ الأرثودكسيّة العقديّة وحدها هي التي يستطيع الاستبداد ضمان بقائه بواسطتها.

ينبغي أن نحتفظ في ذاكرتنا بأنّ الادّعاء العرضيّ للامتثاليّة «العِلمويّة» غايته الوحيدة تضليل الشّعب وقيادِه إلى الطّاعة والخضوع. ومن ثَمّ، فإنّ كلّ تشكيك، ولو افتراضيّ، في المعرفة القائمة، قد يكون خطيرًا: يمكن أن يولّد ثورات أو انتفاضات أو تمرّدات من شتّى الأنواع، تضعف توتاليتاريّة السّلطة القائمة.

هل يستطيع أنصار الصّمت الإجباريّ والموافقة المُكرَهة أن يفهموا حكمة الفلسفة الباطنيّة: «يبلغ العلم منتهاه حين يعرف ما لا يعرف»[80] وهو ما يعكس شكّ المستكشفين الكبار أو المصلحين.

فمارتن لوثر كان يريد مشاركة الشّكوك «التي تملؤه» مع الذين يقاسمونه نفوره من الدّغمائية الكهنوتيّة في عصره. إنّه الشّكّ الدّيكارتيّ الذي افتتح كتاب **خطاب في المنهج**، ذلك الكتاب الذي نعرف آثاره التي لا تنكر في عالم الأفكار. فهل ينعت ديكارت، وبعض المفكّرين الأحرار الآخرين، في أيّامنا هذه بأنّه «تآمريّ»؟ لنذكّر أخيرًا بالمقولة المنعشة لنيتشه: «ليس الشّكّ ما يسبّب الجنون، بل اليقين.»

كلّ اكتشاف هامّ يرتكز على جملة من الفرضيّات ليس لها قوّة «طَريحة»، وديناميّتها هي الشّكّ تحديدًا. تلك الدّيناميّة هي التي

(80) باللّاتينيّة في الأصل summa scientia, nihil scire

تعطّل سيرها مشهديّة الأخبار والميل إلى الإدهاش الذي هو المحرّك الأساس. ومن ثَمّ يأتي الاستخدام الممضّ للمتمسّكين بالامتثاليّة لعبارة «فلك التّآمريّة» لأجل إدانة من يحاولون الخروج من السّبل المألوفة، أولئك الذين يحاولون «أن يلقّحوا أنفسهم» ضدّ القناعات الدّغمائيّة المتنوّعة. فـ«المناعة السُّمّيّة»[81] هي منذ القدم شكل من أشكال مقاومة السّمّ.

لنذكّر، بطريقة طريفة، أنّ ميثريداتس[82]، ملك بونتوس، في آسيا، اشتهر بحذقه لغات كثيرة (كان يتكلّم ويفهم اثنتين وعشرين لغة) وصموده أمام السّموم، بفضل تعوّد تدريجيّ على تناولها. منه تأتي هذه الصّفة التي انتشرت منذ عهده وازدهرت. إنّها معرفة إذن، معرفة صحيحة، في علاقة بالحياة اليوميّة، تسمح بمقاومة سمّ الأخبار الخاطئة، أي ما هو أحاديّ الجانب بنيويًّا.

ومن ثَمّ يأتي رفض كلّ خطاب متعدّد الجوانب أساسًا. مثل ذلك الخطاب يتناول كلّ الظّواهر، أيّا ما تكن، صحّيّة، اجتماعيّة، جيوسياسيّة، في تشابكها الطّبيعيّ. ولا يكتفي بقطف بقايا كرْم ليس على ملكه: «الالتقاط» في جنوب فرنسا هو طريقة لجمع العنب الذي يتركه القاطفون كي يصنعوا «نَطْل الشّراب»، أي خمرة من أكثر الخمور رداءة.

ذوو الأفكار الحرّة في كلّ الأزمنة سعوا إلى تقطير الكحول المنعشة

---

(81) Mithridisation: اكتساب المناعة بتناول جرعات متدرّجة من السّمّ.

(82) Mithridate: ميثريداتس الأكبر أو السّادس (135 ق م -63 ق م)، ملك بونتوس، وهو إغريقيّ من أصل فارسيّ.

واستهلاكها، وخاصّة تجنّب التّقليد، ميزة الكسول. نقلّد بنسخ النّموذج تمامًا أو باتّباع العكس بالضّبط، أي بمعارضته. ميزة الذين يقال إنّهم ينتمون إلى «فلك التّآمريّة» هو تجنّب الخلافين. هم يوجدون في موضع آخر لأنّهم يرسمون فرضيّاتهم انطلاقًا من الحقائق نفسها وليس وفق أفكار مسبّقة.

ينبغي التّذكير في هذا الشّأن بأنّ الكلمات التي تنتهي بـ«إيّة» isme ليست صائبة، لأنّها، ببساطة، غائمة، مليئة بتساوي المَعاني والازدواجيّة، وهي خصوصًا عامل انقسام لما تثيره من خصومات لا نفع فيها. لذلك، في إفلاس الزّمن الحاضر، يتحدّث الخائفون من الفكر الحقّ عن التّآمريّة وجانبها المدمّر، وتلك طريقة بالنّسبة إليهم لتجنّب أيّ جدل كان.

القوانين، أيًّا ما تكن، تتبع الآداب العامّة، وإذا لم يتّفق الرّأي العامّ حول القوانين الصّحّيّة أو الجيوسياسيّة أو الاجتماعيّة التي يحاولون فرضها عليه، فإنّه يثير خوف من يُفترض أنّهم ضامنوها. وبما أنّ السّلطات العامّة خائفة، فهي ترسم خططًا لا تخلو منها الأحداث الجارية. باختصار، لأجل مقاومة كلّ خضوع محتمل، يُعَدّ أدنى خطاب مخالفٍ خطرًا جسيمًا لا بدّ أن نعمل على حظره وحتّى إلغائه.

ما يُهمله ذلك الخطاب أو يستهين به ليس سوى «الواقعيّة» التي وضعت التّومائيّة[83] أركانها: «الفكر متّحدًا مع جسد ممكن لا يمكن أن يحوز المعرفة إلّا بفضل الصّور [...] لا يستطيع فكرنا، في ظروف الحياة التي توحّده بالجسد، أن يعرف شيئًا في طور الفعل إلّا

(83) Thomisme: نظريّة توما الأكويني اللّاهوتيّة والفلسفيّة.

بمساعدة الصّور[84]».

تلك الصّور هي التي تربطنا بالحياة الحيّة، وبطريقة كلّيّة: لا يتعلّق الأمر بالأفكار المفروضة فقط، بل بواقع المعيش اليوميّ في كلّ تجسّده. وأيّا ما يكن جهل النّخبة الحاكمة كي تقرّ بذلك، فإنّها تجسّده مستندة إلى مخيال للخوف. لنذكّر بأنّ المخيال، بوصفه مناهضًا للعقلانيّة التي شكّلت نموذج الحداثة المهيمن، كان في كلّ الأوقات المدار الذي يتشكّل فيه كلّ عيش مشترك. فالمخيال، بوصفه جملة من الأساطير والخرافات والأوهام والأشياء الخارقة، يقرّر معنى الحدّ، الوثاق الأساس الذي منه يتألّف المجتمع.

للتّذكير، منذ 1960، كان الأنثروبولوجي والفيلسوف جيلبير دوران في عمله الضّخم **البنى الأنثروبولوجيّة للمخيال** قد أكّد أنّه يوجد إلى جانب «النّظام النّهاريّ للمخيال»، نظام الحداثة التي يمثّل السّيف والعضو الذّكريّ شكله، نظامٌ ليليّ للمخيال[85]، وهو الذي يبدو راجحًا في الوقت الحاضر. اللّيل يمكن أن يثير أشياء

---

(84) باللّاتينيّة في الأصل (مع مقابلها الفرنسيّ) aliquid intelligere in actu, nisi convertendo se ad phantasmata

انظر Saint Thomas d'Aquin, Somme théologique, I qu. 84 art. 7

انظر أيضًا M. Maffesoli, La Force de l'imaginaire, Contre les bien-pensants, (المؤلّف) Montréal, Ed. Liber, 2019

(85) Gilbert Durand, Les Structures anthropologiques de l'imaginaire, Paris, PUF, 1960

عن النّظام اللّيليّ، انظر ص 201

انظر أيضًا

Les Cahiers européens de l'imaginaire n° 10, « La Nuit » CNRS Éditions, et Peggy Larrieu, La dangereuse utopie d'un monde sans ombre, Paris, Éd. L'Harmattan, 2022 (المؤلّف).

رائعة. والفنّ في مختلف فروعه، موسيقى، فنّ تشكيليّ، شعر، دالّ على ذلك تمامًا. ولكن في ذلك «النّظام» أيضًا يمكن أن تتفتّح أكثر العناصر ظلمة، وما التّنبيه إلى «التّآمريّة» والتّنديد بها إلّا التّعبير الأوضح عنه. ينبغي الوقوف لحظة على أسباب وآثار هذه الآليّة التي يعتبر ملمحها المركزيّ نوعًا من الدّيمونولوجيا[86]، بعد أن تحوّلت الطّائفة السّياسيّة الإعلاميّة إلى طبقة جديدة من الإكليروسيّين باتت تعمل على طرد الشّياطين.

تلك الطّائفة، وقد استبدّ بها الذّعر، واستشعرت نهاية نفوذها، صارت تُظهر هوسًا شيطانيًّا. وقد تبدّى ذلك الهوس جليًّا بانتظام، كما بيّن المؤرّخون الذي درسوا «فلك التّآمريّة». تلك العقليّة الحصاريّة علامة واضحة لنخبة لا تني تنفصل عن الجماهير الشّعبيّة، لكون استراتيجيّة الخوف نتيجة منطقيّة لمناخ القلق الذي تعيش فيه تلك النّخبة. إنّها آليّة الإسقاط التي أحسن تحليلها سيكولوجي الأعماق (كارل غوستاف يونغ) أو عالم التّحليل النّفسيّ (سيغموند فرويد).

وهكذا، فإنّ اتّهام التّآمريّة هي ديمونولوجيا مانويّة تقوم على منطق يجانب الواقع المعقّد. وهو تعقيد يجد فيه كلّ شيء مكانه، ويُفترض أن يجد فيه كلّ شيء مكانه، تعقيد يتوصّل فيه الخير والشّرّ ولو بصعوبة إلى التّناسق، لكون تطابق الأضداد تعبيرًا جوهريًّا عن الإنسان، وتعبيرًا عن نظام الأشياء بوجه عامّ.

---

(86) Démonologie: علم الشّياطين، دراسة الشّياطين والأرواح الشّرّيرة انطلاقًا من تاريخ الأديان والوثائق الثّقافيّة التّاريخيّة.

ذلك التّطابق هو الذي تجهد الدّيمونومانيا[87] والدّيمونولوجيّون لإنكاره، بالرّغم من أنّهما الفاعلان فيه. أمّا بخصوص الأوبئة والحروب ومختلف النّزاعات الاجتماعيّة، فإنّ وسواس الهيئات الحاكمة هو «أن تُفاجَأ»، ولذلك تفرض محكمة تفتيش حقيقيّة. تلك المحكمة، وإن بتسميات مختلفة، هي بنية أنثروبولوجيّة من جهة سعيها إلى مطاردة ما تعتبرهم هراطقة. التّفتيشيّة تقاوم المنحرفين، أولئك الذين يجرؤون على الخروج عن المألوف. وذلك المسعى، حتّى نقوله ببساطة، هو جوهر التّوتاليتاريّة. نعرف كيف كانت تهمة «الهوليغانيزم» في الأنظمة الشّيوعيّة تُوجَّه في الواقع ضدّ من يرفضون الانخراط في مختلف حركات الشّباب والكتّاب والفنّانين والأساتذة الذي يعوَّل عليهم لتأطير الفكر.

إنّ جوهر «العنف التّوتاليتاريّ» هو اجتثاث الفكر الحرّ ومقاومة من تعتبرهم الدّغمائيّة خصوم الأرثودوكسيّة. كلّ ذلك طبعًا بالإحالة إلى الأسطورة التّقدّميّة وبمساعدة خدمة عامّة تعمل على وضع العامّة في خدمتها[88]. الخوف من التّخريب، ومن الذين يُنعَتون بالـ «مزيِّفين» هو ميزة ذهنيّة مذهبيّة ذات جوهر دينيّ. ثمّة ميل في الغالب إلى اعتبار التّوتاليتاريّة سياسيّة بالأساس، يمكن أن يضمن غيابَها اقتراعٌ حرّ وممارسةٌ ديمقراطيّة. ولكن ثمّة

---

(87) Démonomanie: استلاب ذهنيّ سببه توهّمُ المرء أنّه مسكون بالجنّ والشّياطين، أو خوفُه من الجحيم.

(88) اسمحوا لي بأن أحيلكم على كتابي

M. Maffesoli, La Violence totalitaire. Essai d'anthropologie politique (1979), rééd. Paris, Éd. Méridiens Kliencksieck 1994, p. 167. (المؤلّف)

توتاليتاريّات تُمارَس في الحياة اليوميّة والقواعد الاجتماعيّة وتنظيم العلاقات المجتمعيّة وحتّى في التّوصيات التي تُقدَّم للحياة الأسريّة والتي تمثّل كلّها دكتاتوريّة أجساد وعقول ذات كُنه توتاليتاريّ.

لقد ذكّر كارل شميت في القانون وكارل لوفيت في الفلسفة أنّ معظم المصطلحات التي استُعملت منذ القرن الثّامن عشر لتحليل الوضع السّياسيّ كانت مصطلحات تيولوجيّة عَلمانيّة، وخاصّة في ما يتعلّق بالخوف من التّخريب عبر حفظ الصّحّة والتّعقيم والتّشبّه بسلوك الحكّام وكلّ ما يميّز أيديولوجيا الحداثة.

لنضرب مثلًا بسيطًا عن ذلك الثّالوث: منذ عشرين سنة، صار العنف العاديّ لأطفال يتشاجرون في ساحات المدارس يُتَعقَّبُ، ويُسجَّل في برمجيّة، ويُعاقَب، وهو ما لم يعد يسمح لهم بالوعي بقوّتهم وبألمهم، وبأجسادهم في مواجهتها لأجساد أخرى. ثمّ إنّ مختلف البروتوكولات التي أملتها وزارة التّربية خلال الأزمة الصّحّيّة أضفت صبغة وقائيّة على ذلك التّباعد: لا بدّ أن يُفصل الأطفال بعضهم عن بعض مسافة متر، لا يُستثنى من ذلك صغار رياض الأطفال، حتّى أثناء فترات الاستراحة. أمّا وضع القناع، فقد فُرض منذ السّنة التّحضيريّة. ثمّ نتعجّب كيف أنّ أولئك الأطفال، الذين مُنعوا من أن يلعبوا معًا ويتلامسوا ويتسابقوا، انكفؤوا على وحدات تحكّم ألعاب الفيديو لأجل مواجهات افتراضيّة ولكن شديدة العنف أحيانًا.

وإذ أحسّت المنظومة الحاليّة بأنّ تلك الأيديولوجيا الأمنيّة لم تعد مقبولة، حاولت تهويل الوضع عن طريق مصادرة استباقيّة تعمل

على حماية التّصلّب المذهبيّ الذي يميّز الإسراف في التّأمين، أي «الخطر الصّفر» الذي يشكل بمسمّياته المختلفة «الدّواعي المناخيّة» للحداثة، بعبارة خوسيه أورتيغا إي غاسّيت.

تلك هي أيديولوجيا شعب من الموظّفين، يضمنون، من الولادة إلى الوفاة، بقاءهم، بكلّ ما في الكلمة من معنى. قد تجد الذّهنيّة غير المثقّفة، في جانبها الأكثر خمولًا، في هذا تحقيق وجودها في الدّعة النّاعمة لكون معقّم، يريد ذلك الشّعب من الموظّفين أن يستقرّ فيه المجتمع بتمامه وكماله.

إنّه استيهام أموميّ: الدّولة الحاضنة تحمي وتؤمّن وتعامل معاملة طفل كلّ فرد وحتّى المجتمع كلّه. ومن يرضون بذلك التّطفيل يصبحون منحرفين عن المذهب. يمكن بكلّ بساطة أن نطبّق عليهم الصّيغة الإكليريكيّة القديمة «فليكونوا ملعونين!» ضدّ الهراطقة، الذين صاروا اليوم يُدعَون «التّآمريّين».

كيف يتمّ إعداد المنطق الدّاخليّ للشّبهة؟ هنا أيضًا، البنية قديمة ومجرَّبة في الوقت ذاته: الوشاية. في الدّيمونومانيا الكلاسيكيّة، كان الأمر يتعلّق بالتّبليغ عن السّحرة أو الهراطقة؛ أمّا اليوم، فالتّبليغ يخصّ الخارجين عن الصّراط، أي أولئك الذين يعترضون على الاستبداد اليوميّ، فضلًا عن الذين يتحفّظون على الأيديولوجيا الأمنيّة.

لا يمكن أن نصف أكثر من ذلك المناخ المؤذي في الوقت الحاضر، مناخ نسكن خلاله الخواء. خواء الفكر، خواء العلائقيّة التي تشكّل كلّ حياة اجتماعيّة، لأنّها هي التي يتمّ إضعافها. لنستمع في هذا

الباب إلى الفيلسوفة حنّا أرندت التي أكّدت بدقّة أنّه «حينما يكذب عليك الجميع باستمرار، فالنّتيجة ليست أنّك لا تصدّق تلك الأكاذيب، بل ألّا تصدّق بعدئذ أيّ شيء. والشّعب الذي لم يعد بمقدوره أن يصدّق شيئًا لا يستطيع أن يكون له رأي. فهو ليس مجرَّدًا من قدرته على الفعل فحسب، وإنّما أيضًا من قدرته على التّفكير والحكم. بشعب كهذا يمكنك أن تفعل ما تشاء[89]».

تشخيص قاسٍ وأشدّ ما يثير الحيرة، لأنّ ذلك يعني نهاية الرّابط الاجتماعيّ، والعلائقيّة المكوّنة لكلّ حياة اجتماعيّة. فهل يكون ثمّة عيش مشترك دون «ترابط»؟ كأنّ شعب الموظّفين، في أيديولوجيا الخدمة العامّة، لا يمكن أن يوجَد إلّا بتشظية ذلك الرّابط وتفكيكه. وهو أمر منطقيّ، لأنّ القلب النّابض للمؤسّسات الاجتماعيّة العصريّة هو تلك الفردانيّة الأبستيمولوجيّة، سبب ومسبّب لتضامن مزعوم آليّ، دمّر كامل التّضامن العضويّ للمثل الأعلى الجمعيّ، أساس كلّ مجتمع.

هل أذكّر بأنّ تلك الحداثة، مجتمع الاستهلاك، بدأ بتآمريّة، وأعني بها الإصلاح البروتستانتيّ؟ في **الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرّأسماليّة**، حلّل ماكس فيبر بكيفيّة حاسمة تلك العلاقة المتبادلة. وكان لوثر، كما بيّنت، أوّل من عبّر عن «شكوكه» تجاه ما يعتبرها

---

(89) Hannah Arendt, Entretien avec Roger Errera, 1974. انظر hannaharendt.wordpress.com/2008/01/04/ Hannah-arendt-from-an-interview/

أمّا عن مفهوم «الرّابط» reliance، فلتنظر

Marcel Bolle De Bal, Voyages au cœur des sciences humaines. De la reliance, Paris, Éd. L'Harmattan, 1996. (المؤلّف).

توتاليتاريّة رومانيّة، ووضعها موضع تطبيق. ففي رأيه أنّ روما «مومس بابل» منحرفة، لا بدّ أن تترك مكانها لبنية كنسيّة أخرى، ناجمة عن «حرّية الامتحان» و«الكهنوت الكونيّ»، واضعًا مبدأ مساواة كلّ المعمَّدين الذين لا يحتاجون إلى سيامة كاهن كما هو الشّأن لدى الإكليروس الكاثوليكيّ.

فيما بعد، كما بيّن الفيلسوف الماركسيّ إرنست بلوك، صار الصّراع ضدّ العقيدة الرّومانيّة هو نفسه عقيدة حين اعترض لوثر على «حرب الفلّاحين» والدّاعين إلى تجديد العِماد التّابعين لتوماس مونتزر[90]. ولكن لا يهمّ، فتحرّك الإصلاح (لوثر، كالْفن) أو الإصلاح الرّاديكاليّ (مونتزر) كان تآمريًّا أدّى إلى النّتائج التي نعرف.

في كلّ المجالات، ذلك ما يشغل الأنظمة القائمة والمهترئة، فالفاقد للشّرعيّة ينقلب إلى شرعيّ. والرّسّامون والموسيقيّون والفنّانون والشّعراء، إلخ، المهمّشون في زمنهم، سوف يصبحون المرجع المقبول والكونيّ في الزّمن الموالي. بهذا المعنى ينبغي التّنبّه إلى الذين يُسمّون تساهلًا أو تعسّفًا تآمريّين، والحال أنّهم ليسوا كذلك، لما لهم من جرأة، حتّى داخل فكرهم، على عرض الاختلافات وحتّى التّناقضات. إنّه الـ «نعم ولا» sic et non الذي حوكم من أجله بيير أبيلار[91] في عصره، ولكنّه شكّل لاحقًا، حتّى في أيّامنا

---

(90) Thomas Müntzer (1489-1525): قسّ ألمانيّ من المصلحين الأوائل. قاد المتمرّدين أثناء حرب الفلاحين الألمان على النّبلاء ورجال الدين سنة 1524.

(91) Pierre Abélard (1079-1142): فيلسوف مسيحيّ فرنسيّ، جدليّ ولاهوتيّ، أبو المدرسة السكولائيّة، ومبتكر المفاهيميّة.

هذه، مرجعًا للمفكّرين الأحرار لا يمكن تجاوزه، لكونه يتعارض مع حجّة القوّة «شيء ضدّ» sed contra. لا يتعلّق الأمر بالاعتراض فقط، وإنّما بشفع ذلك بتقديم رؤية أكثر تعقيدًا، وبالتّالي أكثر اكتمالًا عن الوقع الفكريّ والإنسانيّ.

لست رجل علم ولا يمكن تبعًا لذلك أن أناقش المعطيات التي يقدّمها العلماء، غير أنّي أعتبر أنّ ما يُطلق عليها العلوم الصّلبة، أي الفيزياء والكيمياء والرّياضيّات، وعلوم الأحياء إلى حدّ ما، والبيولوجيا والطّبّ تخضع للتّخطيط الأبستيمولوجيّ نفسه، فالعلم هو بالضّبط مجال الشّكّ، وكلّ يقين اليوم يمكن أن يصبح محلّ مراجعة، وقصّة الفيزياء الفلكيّة التي أحسن سردها العالم الكبير جان بيير لومينيه، من خلال رواياته الأربع (كيبلر، كوبرنيكوس، تيكو براهي، غاليلي) تبيّن كيف أنّ «الحقيقة» توضع كموضع شكّ باستمرار. والأمر لم ينته، فأكثر الفرضيّات تطوّرًا ليست سوى نتف من علم تامّ لا يُدرَك أبدًا[92]. بيد أنّ تلك المقاربة الأبستيمولوجيّة هي التي تُعوز العلماء، وبالأحرى «العلمويّين» من ذوي الدّرجة الدّنيا. ولكونهم لا يعرفون تقدير مثال رياضيّ، ولم يجرّبوا قطّ العلاقة بالحيّ ولا سيّما السّريريّ، فهم يتشبّثون بحقائق معلومة، ويبتهجون بالبحث الحميم عن الأخبار المزيّفة fake news، وينسون أنّ كلّ حقيقة علميّة ليست سوى وضع المعرفة في

(92) انظر Jean-Pierre Luminet, Les Bâtisseurs du ciel (intégrale), Copernic, Kepler, Tycho Brahé, Galilée, Newton, Paris, 2015.
انظر أيضًا لنفس الكاتب Illuminations. Cosmos et esthétique, Paris, Odile Jacob, 2011 (المؤلّف).

لحظة محدّدة، ولا بدّ أن يُعاد فيها النّظر بلا انقطاع.

ما لا يحتمله كلّ الذين يميلون إلى الرّداءة، هو الجِدّة والجرأة واستكشاف فرضيّات غير مسبوقة حتّى وإن أدّى الأمر إلى الوقوع في الخطأ! «امتثاليّتهم المنطقيّة» بعبارة دوركايم، ترى في الفكر الحرّ أمرًا لا يُطاق، لذلك يسعون إلى قدحه. ومن ثَمّ كانت البيانات العديدة والهجومات الشّخصيّة والممارسات الجديرةُ بمحاكم التّفتيش الكنسيّة داعيةً السّلطات العامّة إلى معاقبة «المنحرفين» بقسوة. ومن المضحك في هذا الباب أن نرى موقّعي اليوم على بيان يدعو هذه المؤسّسة أو تلك إلى معاقبة فرد غير امتثاليّ يتحوّل من الغد إلى ضحيّة مثل ذلك المسعى. والعجلة تدور!

من المهمّ أن نلاحظ أنّ الكذب والتّحريف والثّلب والشّتم، إلخ.، صارت في أيّامنا هذه أكثر تداولًا في ما لم يعد سوى جدل عامّ عقيم. ومن الطّبيعيّ أن يطفح المخيال، وهو ما يحدث للمخيال الذي قامت عليه الحداثة. وتهمة «التّآمريّة» هي خير ما يلخّص امتثاليّة كلّ أطراف الكذب القائم، نظرًا إلى استهانة كلّ العقول الجريئة بتلك الأحكام المتسرّعة التي لا تلبث أن تصبح لاغية.

وبما أنّي استشهدت بمارتن لوثر، فهل يمكن لي أن أذكّر بأنّ «مؤامرته» في القرن الخامس عشر نالت النّجاح الذي نعرف، وكانت قبل كلّ شيء تمرّدًا على منظومة «التّسامح»؟ والحال أنّها كانت من أفضل المنظومات دقّة: بدفع مبالغ، لا يستهان بها أحيانًا، بالانخراط في حملة صليبيّة، أو الذّهاب للحجّ، يمكن، كما سبق أن بيّنت، تنقيص عدد السّنوات التي يقضّيها الموتى في المطهر. محكمة

جميلة بين السّماء والجحيم يمكن من خلالها استرجاع عُذريّة مؤكّدة...

الأمر يتعلّق إذن بشكل من التّأمين: عناية المرء قدر جهده بروحه كي يسمح له بالالتحاق في أقرب وقت ممكن بالخلود. وبإدانة ذلك التّطهير ساهم المصلح التّآمريّ في وضع شروط العالم الرّأسماليّ، الذي استطاع منذ تلك الحقبة إلى الآن أن يتطوّر بالنّجاح المعروف، وإلى أن بسط هيمنة عالميّة، مع بعض الفروق بحسب البلدان.

من المنطقيّ أن يعتري الإمبراطوريّاتِ انحطاطٌ قبل أن تنبثق نهضة[93] بديلة. ولكن ما يكون في الدّولة النّاهضة ديناميكيًّا مفتوحًا يصبح صلبًا ومتعصّبًا وشموليًّا حين تستقرّ تلك الأشياء.

وهو ما يمكن أن نلاحظه اليوم، فمنظومة التّسامح المعاصرة، التي وضعتها إكليروسيّةُ التّكنوقراطيّةِ تتمثّل في صياغة نظام أخلاقيّ لا أحد ولا شيء ينبغي أو يقدر أن يتهرّب منه. الغاية العامّة، بمعناها القويّ، هي تأطير المجتمع وكلّ أعضائه، وهو ما يتمّ عبر إخضاع لكلّ الطّبقات الشّعبيّة في اتّجاه وحيد.

ما تريده السّلطة العموديّة هو التّطبيع، كسبب ومسبّب لمسار

---

(93) استخدام عبارة «نهضة» نعتًا لحزب الأغلبية الجديد يساهم في آليّة «قلب المعنى» الذي حلّلتُه في كتاب سابق. المتدخّلون المكلّفون بعناصر الكلام في خطاب الرّئيس وحزبه أحسّوا حدسًا بالتّغيّر الجاري في القيم، ولكنّهم يستخدمون الكلمات ليسرّبوا فيها أشياء عفا عليها الزّمن: النّهضة تستوجب تغيير النّخب، وهذا ما لا يقدرون عليه.

انظر M. Maffesoli, Être postmoderne, Paris, Éd. du Cerf, 2018

وخاصّة ذيل الكتاب لهيلين ستورل Hélène Stohl «Emmanuel Macron, icône ou fake de la postmodernité ?» (المؤلّف).

مثاقفة. وهذا يؤدّي إلى ماديّة لاإنسانيّة، كغاية قصوى للإفراط في التّنظيم التّقنيّ البيروقراطيّ، عبر أوامر مضايقة، تروّج للسّعادة للجميع وتُملي، ولو عن طريق قوانين سالبة للحرّيّات، الكيفيّة التي ينبغي أن تتحقّق بها تلك السّعادة.

في تلك المواقف مفارقة لأنّ التّكنولوجيا والسّعادة هما من الأشياء التي ينوب بعضها عن بعض. وهنا نتمثّل عنوان مؤرّخ للصّين القديمة (إتيان بالاز) «البيروقراطيّة السّماويّة»، تلك التي تُملي من فوق ما ينبغي أن يكون عليه العالم، وتنتهي دائمًا إلى نتيجة معاكسة: التّوتاليتاريّة الأكثر تعصّبًا، تلك التي تزداد حدّة إذا كانت حضارة ما في طور النّهاية. ولنا مثال صارخ في الصّين المعاصرة، ذلك المزيج من التّوتاليتاريّة الشّيوعيّة الأكثر قسوة والرّأسماليّة الجامحة، في سياسة «صفر كوفيد» التي أدّت إلى تعاقب عمليّات الحجْر والمصادقة نهائيًّا على مراقبة يوميّة دائمة.

في تصلّب التّوتاليتاريّة ذاك يُشنَّع بمن يحاولون التّصدّي له. وكان ميشيل فوكو، في تنبيهه إلى الجوانب الصّحّيّة للمراقبة، قد تحدّث عن «وسواس الجنون» الذي أدّى إلى إنشاء المؤسّسات الإصلاحيّة[94]. ذلك الوسواس ناجم عن الظّرف القائم، بانتظام، بين الماسكين بالسّلطة والماسكين بالمعرفة. وذلك الظّرف يولّد الرّيبة: إذ ينبغي الوشاية ثمّ إدانة أولئك الذين يُشتبَه في كونهم مصدر الشّرّ.

(94) Michel Foucault, Histoire de la folie à l'âge classique, Paris, Gallimard, 1961, p. 73. (المؤلّف).

غالبًا ما ذكرت أنّ النّسبويّة[95] لا تعني أبدًا التّخلّي عن الفكر أو الاعتقاد بألّا شيءَ هامٌّ، وأنّ كلّ الأشياء تتساوى، بل تعني جعل حقيقةٍ وحيدةٍ «نسبيّةً» ووضع الحقائق المتعدّدة في علاقتها بعضها ببعض. هي باختصار تكاثرُ مَخاييل. وهو أمر معروف منذ مالبرانش[96]، والحداثة أن نعتبر أنّ العالم لا يخضع لقوانين عقلانيّة صرف، ويرتاب من المخيال، «الخيال، بيت المخيّلة»، أي ما يعطّل اشتغال الدّماغ. والنّتيجة الطّبيعيّة لتكاثر المخيال المعاصر هي التّسامح، الذي كان هو أيضًا محلّ استصغار أثناء الحداثة، كما تدلّ على ذلك المقولة التي تريد أن تكون مازحة: «التّسامح، ثمّة بيوت لذلك»، كردّ فعل معتاد للعقول الدّغمائيّة. ردّ فعل عاديّ وفضوليّ في الوقت ذاته، في تلك الحداثة، لأنّ التّسامح مبدئيًّا هو خاصّيّة الإنسانيّة التي تتباهى بها تلك الفترة. تعبير عن الشّجاعة، المؤلّفة كما نعرف من خليط ضيّق وخصيب بين «القلب والغيظ».

اتّصال النّسبويّة والتّسامح هو القلب النّابض لما يسمّيه الدّغمائيّون الإكليروس المعاصرون، بعكس المعنى كما أسلفنا، «تآمريّة»، في مسعى إلى إلقاء التّهمة على الآخر. والنّسبويّة والتّسامح يعتبران أحكام الإدانة والقوانين غير مجدية. الثّلب والمديح، التّحمّس والجدل، جميعها تساهم في «تغيير رؤية العالم»[97]

---

(95) Relativisme: مذهب فلسفيّ يقول بأنّ المعرفة نسبة بين العارف والمعروف.

(96) Nicolas Malebranche (1638-1715): لاهوتيّ فرنسيّ، كاهن خطيب وفيلسوف.

(97) Arraisonnement: المقابل الفرنسيّ لمصطلح هايدغر Gestell أي تغيير رؤية العالَم عن طريق التّقنية.

كلّ بطريقته: اعتبار العالَم عقلانيًّا فقط، ومن ثَمّ تغييره واتّهامه وطلبه إلى العدالة إذا لم يناسب العقل المهيمن، عقل وسيليّ أو مرَضيّ ما فتئنا نرى آثاره المدمّرة.

مثل هذا التّحويل هو الذي صار رائجًا هذه الأيّام، إذ جعلت منه النّخبة في بلدان عديدة تخصّصًا، فقد نسيت السّيادة الشّعبيّة، وباتت تعتبر أنّ ما يهمّ هو السّلطة القائمة فقط، وفي ذلك تناقض في المصطلحات، فقاعدة السّلطة السّياسيّة هي بالضّبط الشّعب الذي يفترض أنّها تمثّله.

ولكن المبدأ الوحيد لدى الدّيمقراطيّين الذين يتصدّرون الواجهة، وهم لا يصادقون الشّعب كثيرًا، هو ألّا يكون ثمّة أيّ مبدأ! ومن ثَمّ فإنّ الخبراء المفوّضين، في بغبغتهم تجاه تلك السّلطة العموديّة، متخلّفون حين ينشدون لازمات تعاطف مبتذلة، قادمة من القرن الثّامن عشر أو التّاسع عشر البعيدين، واللّذين كان الأنوار والمنظومات الشّعبيّة الكبرى خلالهما تعبيرًا عن طبقات متعلّمة، يفترض أن تكون الطّليعة التي تحمي وتراقب شعبًا معتوهًا، طفوليًّا نوعًا ما، ينبغي قيادته إلى برّ الأمان.

ولكنّ تلك المراقبة لم تعد موجودة، إذ ثمّة أوقات يروم فيها الشّعب التّعبير عن إرادته والتذكير بأنّه أساس كلّ حياة في المجتمع. والنّخبة، إذ تحاول بثّ الخوف، إنّما تبثّ خوفها هي. ولو سقنا مثلًا من بين أمثلة كثيرة، فعن الخوف الدّائم للطّبقة العسكريّة في إسبرطة القديمة الذي تسبّب بانتظام في تمرّد الهيلوتس[98]. مثال متعارض

(98) Hilotes: طبقة العبيد في إسبرطة القديمة.

يصوّر الارتياب / التّحدّي للطّبقات الحاكمة.

ذلك ما ولّد الخوف ممّا يزعج قناعاتنا، وما يربك **الدّوكسا** أو الأرثودوكسيّة المهيمنة. خوف ممّا هو تقليد قديم وراهن، فالنّموذج والنّمط الجديد غالبًا ما يكونان وثيقي الصّلة.

إنّه الشّكّ، أي الحياة الحيّة، التي تشكّل الاضطراب المعاصر. والهوس برؤية التّآمريّة في كلّ مكان، كطريقة تبسيطيّة وخرقاء لإزاحة الأفكار المحرجة، يميّز ما اعتدت على تسميته بـ «المراحل الغاربة» التي يتفسّخ خلالها كلّ شيء ويبحث عن طريق، حيث تتجذّر الأنماط الجديدة في النّماذج القديمة، ولا تستطيع فكّ شفرات ذلك سوى العقول الحرّة. من هذه الزّاوية، فإنّ التّنديد بـ «التّآمريّة» هو اغتصاب نفسانيّ ومُخمد للعقل.

في كلّ مراحل الانتقال، توجد «غرف سوداء» تعمل على انتهاك السّرّ البريديّ لمراقبة حركات كلّ فرد وسكناته وأقواله وكتاباته. أليست آليّة المراقبة تلك هي الجارية الآن، من خلال لجان رسميّة تقريبًا أنشأتها السّلطات العامّة بدعوى تنقية الأخبار الزّائفة، وهو ما أدّى إلى التّجسّس على المواقع الاجتماعيّة ومنابر النّقاش وغيرها من الأماكن التي تقال فيها الكلمة الحرّة، والحدّ من نشاطها؟

كلّ شيء يصلح للوشاية وخاصّة تكرار الأكاذيب والحقائق الخاطئة. دون ذكر الشّتائم السّمجة التي لا يجرؤ أحد على التّلفّظ بها في أكثر الأحياء اكتظاظًا بالسّكّان، لأنّهم يحترمون السّنّ والتّجربة، ولكنّ تلك المواقع تتناوب السّباب بلا حياء. فالأيديولوجيّون الحقودون يهاجمون حرّيّة التّعبير الأساسيّة، بتبريرات عقلانيّة،

واهمة. لنتذكّر هنا ديكارت وقد اضطرّ إلى أن يتقدّم مقنَّعًا، ولكنّ تلك الحيطة القصوى لم تمنعه من تأليف الآثار التي نعرف، والتي خلخلت الدّغمائيّة المهيمنة.

بكلام أكثر دقّة، نقول إنّ الموقف الدّغمائيّ في شتّى أشكاله ومختلف أنماطه التّاريخيّة من حيث بنيته بارانويديّ. البارانويا تُفهَم فقط كاضطراب في العقل، وتلك حال الموقف بالتّأكيد. ولكنّنا نتناسى أحيانًا أنّ ذلك الاضطراب يتأتّى من فكر عموديّ[99] في جوهره كاشتغال قَبْليّ. كلّ ذلك يؤدّي إلى سوء فهم لما يوجد يوميًّا في الحياة الملموسة.

في مقابل تلك البارانويا التي نجدها في أيّامنا هذه لدى الماسكين بالمعرفة والسّلطة الرّسميّة، ثمّة موقف من يشكّ، أي ذلك الذي يجعل العلم مرتكزًا على التّجربة ووضع الحقائق المكتسبة موضع مساءلة بصفة نهائيّة، ويتمثّل في التّفكير في «البَعد» بالبَعد. وهو ما نسمّيه ميتانويا[100]، كموقف يسائل القناعات القائمة والمُشِلّة. ونحن نعرف منذ أرسطو أنّ معرفة طرح الأسئلة هو ما يختلف عن فكر **الدّوكسا**، ولو كان رأيًا يزعم أنّه «عالِم».

الفكرة هي فكرة تواضع العلم الذي يضع في حسابه، في الوقت نفسه، الشّكوك الخاصّة بالتّجربة المعيشة، وانطلاقًا منها ضرورة

---

(99) Paranoïa: para من اليونانيّة παρά (بجانب، بموازاة) وnous من اليونانيّة νοῦς (الذّكاء والفكر).

(100) Métanoïa: تغيير النّظرة.

انظر Patrick Tacussel, L'Attraction sociale, Paris, Éd. Méridiens-Klincksieck, 1984 (المؤلّف).

معرفة مساءلة كلّ ما يميّز الأنَسيّة بصرامة وتواضع.

ختامًا، هل لي أن أذكّر، للمتعنّتين، بأحد عناصر ما نسمّيها تآمريّة، وأعني به الدّور الأساس للإشاعة؟ بعبارة شعبيّة، نقول إنّ ما نعنيه هو تلك الإشاعة التي «تضرم النّار في البارود». وهذا ما يجعلني أقول إنّ الوباء الحقيقيّ هو وباء الخوف. الخوف، كسبب ومسبّب لكلّ الأكاذيب المصبوبة من تلك الكراسيّ الإكليريكيّة الحديثة أي القنوات التّلفزيونيّة أو الإذاعيّة ذات البثّ المتواصل، أو الصّحف التي تموّلها الدّولة، والتي تُضطرّ لزامًا إلى خدمة الحقائق الرّسميّة الرّاهنة كيفما اتّفق.

الإشاعة تستخدم ما يثير الانفعال، وتجعل العاطفة مساومة دائمة. في كتاب ذي راهنيّة عجيبة، حلّل إدغار موران وفريق من الباحثين «إشاعة أورليان[101]» الشّهيرة[102]: مدارها اختفاء فتيات في حجرات تغيير الملابس لتجّار يهود بالمدينة. بصرف النّظر عن الحالة الخاصّة، تمّ تحليل مسار انبثاق الإشاعة ورواجها، ولا سيّما دوام معاداة السّاميّة. وذكّر موران بأنّ الحداثة تعيد الحياة إلى التّقاليد البالية، وهو ما أدّى إلى «عصر وسيط حديث». هو تقليد قديم بال ذلك الذي يفصح عن نفسه عبر السّياسة المعاصرة لحفظ الصّحّة، حين تثير الامتثاليّة وترسّخ ارتكاساتها الجماعيّة، العاطفيّة أكثر من

---

(101) Edgar Morin, La Rumeur d'Orléans, Paris, Éd. du Seuil, 1969, p. 108 (المؤلّف)

(102) Rumeur d'Orléans: هي قضيّة إعلاميّة وسياسيّة حدثت عام 1969 في مدينة أورليان، وانتشرت في جميع أنحاء فرنسا. وأصلها إشاعة تداولها النّاس عن اختطاف شابّات من غرف قياس الملابس في متاجر يديرها يهود، لدفعهنّ إلى ممارسة الدّعارة في الخارج.

كونها عقلانيّة.

سنرى ما إذا كانت تلك الارتكاسات ستدوم، وهو ما أشكّ فيه، كما سأوضّح لاحقًا. ولكن من المؤكّد أنّها تولّد هستيريا جماعيّة ذات ولاء قروسطيّ يفجّر ذلك «الخوف الماسك بالأحشاء»، الذي هو عنصر أساس في طبيعتنا الإنسانيّة البائسة.

4

عن الْوُوكِيّة

حتّى وإن كان كلّ الآخرين، أمّا أنا فلا[103].

مكتبة
t.me/soramnqraa

ما نسمعه أو نقرؤه عن «الشّعبويّة»، قد لا يكون سوى صدى بعيد لإدانة كارل ماركس وأتباعه حين يتحدّثون باحتقار عن **البروليتاريا ذات الأسمال البالية**[104]، أي زمرة الأوباش، الغريبة عن الطّبقة العمّاليّة النّبيلة، التي يلزم إخضاعها وإرجاعها إلى النّظام، نظام تلك الدّولة القوّيّة، التي تتحكّم في كلّ الحياة الخاصّة والعامّة، تحكّمًا جعله الاتّحاد السّوفييتيّ في عصره تخصّصًا. ثمّ تحوّلت تهمة الانتماء إلى **البروليتاريا ذات الأسمال البالية** إلى تهمة الهوليغانيزم.

يمكن أن نعتبر أنّ لهذا السّبب «أصبحت دكتاتوريّة البروليتاريا في وقت قصير دكتاتوريّة على البروليتاريا»، كما قال بوريس

(103) باللّاتينيّة في الأصل etiam si omnes, ego non

(104) بالألمانيّة في الأصل Lumpenproletariat

سوفارين[105] في حديثه عن السّتالينيّة. يا مَركسة العقول، لكم تستحوذين علينا! النّظام الإعلاميّ السّياسيّ يستحضر دون أن يدري الفكرة المبتذلة القديمة، فكرة من يفترض أنّهم يعرفون عوضًا عن الآخرين، أي عوضًا عن الشّعب، في هذا المقام.

وبطريقة قد تبدو مفارقة، أعتبر أنّ الهوس بما اتُّفق على تسميته بـ «الووكيّة» هو من نفس القبيل. فالحقيقة أنّ «البقاء يقظًا» يندرج في سياق فلسفة الأنوار، في تصوّر أحاديّ للعالم، تصوّر الطّبقات الشّعبيّة الجامدة في هويّة لا يمكن الخروج منها، وتنسى التّشابك الاجتماعيّ الذي يرتكز على تطابق الأضداد.

ومن ثَمّ فـ الووكيّة هي تتمّة منطقيّة للحداثة المنتصرة. ولذلك فُتن التّكنوقراطيّون في السّلطة بتلك الاحتجاجات الظّاهريّة، والحال أنّها ليست سوى ذيل مذنّب لمرحلة في طريقها إلى النّهاية. عبارة فيلسوف تصف ذلك في بضع كلمات: «كلّ "مضادّ" يفكّر ضدّ هذا الذي يعتقد أنّه "مضادّ"[106]».

ولكي نقول ذلك بأكثر بساطة، هم من نفس العالم. يحسبون أنّهم يضيئون العالم بمصابيح عتيقة، وامضة، لم تعد مناسبة لرسم معالم طريق الحياة.

أنصار «ووك» يزعمون أنّها يقظة، وأحيانًا موقِظة، ولكنّها يقظة محدودة جدًّا لكونها تقتصر على هويّة عرق وجنس ونوع، والحال أنّ

---

(105) Boris Souvarine (1895-1984): صحافيّ ومؤرّخ ومناضل سياسيّ فرنسيّ من أصل روسيّ.

(106) Martin Heidegger, Parménide, Paris, Gallimard, 2011, p. 77 (المؤلّف).

ميزة الوضع البشريّ هي الهويّات المتعدّدة، ومقولة أرتور رامبو «أنا شخص آخر» هي شكله الشّعريّ الأنسب.

بهذا المعنى تبدو يقظتهم أشبه بغفوة، بحال لم تتغيّر، ترضي الوضع القائم الذي يخشى أكثر ما يخشى الشّعبويّين الذين يحاولون الهروب من ذلك «الإنسان الأحاديّ البعد» الذي ينوي علماء الأحياء والمادّيّون حصر كلّ واحد فيه. والحقيقة أنّ «الووكيّة»، رغمًا عنها، هي عنصر استراتيجيا الخوف، حين تركزّ الانتباه على محتجّين ليسوا كذلك في الواقع، وهو ما يدعّم آليّة الخضوع المطلق الذي تروّج له المنظومة.

نعرف أنّ معارك المؤخَّرَة هي الأكثر إثارة. و«الووكيّة» تندرج في معركة مماثلة، فهي تثير، عن طريق مسرحتها، خشية مفتعلة تحوّل الوعي الجمعيّ بالخوف الحقيقيّ من خورنة الوجود.

من هذه الزّاوية، يمكن أن نعتبر أنّ تلك «الووكيّة»، «يقظة» مفتعلة، مجرّد جناح مسلّح للتّكنوبيروقراطيّة المهيمنة. هي الصّيغة المزعومة للنّزوع القديم إلى التّرتيب والتّصنيف اللّذَين تتميّز بهما الحداثة العقلانيّة: فنحن رجل، امرأة، عامل، إطار، مُقعَد، خادمة بيوت دون الخمسين، إلخ. يوجد مصطلح علميّ اقترحه برغسون هو **تناضح**[107] للقول إنّ المؤتلف والمختلف يتداخلان. ثمّة اصطدام في غاياتهما، لأنّ قيمهما ببساطة متطابقة تمامًا وتسعى إلى

(107) Endosmose: استعار برغسون هذه الحقيقة العلميّة، وإن لم يكن أوّل من استخدمها، للدّلالة على عمليّة تنافذ، فالتّناضح الدّاخليّ هو في الأصل تغلغل الماء في الخلايا الحيّة التي يحتوي الجزء الدّاخلي منها على تركيز ذرّيّ أعلى من تركيز الوسط السّائل المحيط بها.

نفس الهدف.

بعد العبارة العلميّة، ثمّة استعارة تعود إلى سبعينات القرن الماضي: «الووكيزم» مثل «كندا درايْ» أو مادّة بديلة. يقول الإعلان الإشهاريّ: «لها لون الكحول، وطعم الكحول، ولكنّها ليست بالكحول»، ويمكن أن نضيف «وليس لها نكهته». البحث عن الهويّة الذي تطالب به «الووكيّة» يتناسى أنّ الهويّة، كما بيّنت، تشظّت منذ زمن بعيد إلى هويّات متعدّدة، مستقبليّة وإن بشكل مغاير، ومنسجمة مع روح العصر على أيّ حال. إخضاع الفرد «الواحد» أسهل من إخضاع الفرد «المتعدّد».

في الامتثاليّة المنطقيّة الخاصّة بالظّواهر **حياة السّود مهمّة**[108] أو **مجتمع الميم**[109] أو **أحرار الجنس**[110] إضافة إلى **نظريّات الجندر** واصطلاحات لغويّة إنجليزيّة من نفس الطّينة، توجد حساسيّة فكريّة تستند إلى أيديولوجيا فائقة الحداثة عن «البنية الاجتماعيّة» للواقع. وهو منظور بروميثيوسيّ يحدّد العالم «المبنيّ» من طرف الإنسان، ولا يعير أهمّيّة لنظام الأشياء: نظام القوانين الطّبيعيّة.

نعرف أنّ صورة «بروميثيوس الهائج» استُخدمت كأساس

---

(108) Black Lives Matter: حركة نضاليّة في صفوف الأمريكيّين من ذوي الأصول الأفريقيّة هدفها التّخلّص من الميز العنصريّ والعنف ضدّ السّود.

(109) مجتمع الميم اصطلاح يشير إلى مثليّي الجنس ومزدوجي التّوجّه الجنسيّ والمتحوّلين جنسيًّا. وLGBT هي الأحرف الأولى لـ Bisexual, Gay, Lesbian Transgender,

(110) LGBTQIA: نفس الأحرف التي يُعرف بها مجتمع الميم، ولكن بإضافة الأحرف الأخيرة التي تدلّ على رفض تلك الفئة أيّ تصنيف.

للأيديولوجيا الماركسيّة التي كانت لسانها المنطقيّ، وذلك ما رسّخ التّصورّ الألفيّ[111] للتّغيير. و«الووكيّة» المعاصرة تنبني وفق نفس المنظور: عالم يجدّده الطّوفان. نبوءة قياميّة تستعمل نفير الأيّام الأخيرة. أيّام غضب. مكتبة سُر مَن قرأ

كلّ ذلك يفرز مناخ نهاية **العالَم**، والحال أنّه ليس سوى نهاية **عالَم** هو عالم الحداثة. باستعادة ما يسمّيه المؤرّخ جورج دوبي «رعب العام الألف[112]»، تثير تلك الحركات، المتباينة في خطابها والمتماثلة في امتثاليّتها، شعورًا بوشك نهاية الكون. ولكنّ الرّعب المفتعل المتولّد عن ذلك ليس سوى طريقة ماكرة لتحويل أنظار الوعي الجمعيّ عن الخوف الحقيقيّ الذي تسبّبه المراقبة الاجتماعيّة العامّة.

وتلك هي الحال في الواقع في كلّ العصور القياميّة: ننزعج ممّا هو بصدد الانتهاء، وننسى أنّ كلّ انحطاط يسبق نهضة، وكلّ انحدار يدشّن تكوينًا جديدًا.

من المهمّ أن نعيد مثل هذا البدهيّة الأساسيّة لتذكير مقاتلي العدالة الاجتماعيّة، المدافعين عن القضايا التّقدّميّة ونقول إنّ كلّ ذلك عفا عليه الزّمن، فالتّقدّميّة نفسها تجاوزها الزّمن. نحن الآن بصدد استعادة «فلسفة تقدّميّة» أصيلة، «لا تضرب صفحًا» عن الماضي، بل بالعكس، تستعيد أهمّيّة الجذور، جذور التّقاليد، في المعيش

---

(111) Millénariste: نسبة إلى نظريّة بعض الكتّاب المسيحيّين الذين يؤمنون بمُلك المسيح على الأرض مدّة ألف سنة قبل قيامة الموتى.

(112) في حوالي عام 1000 (أو 1033، أي بعد ألف عام من وفاة المسيح حسب معتقد النّصرانيّين)، سيطر على الغربيّين ذعر شديد ناجم عمّا اعتبروه انتشار علامات السّاعة الكبرى.

الاجتماعيّ.

بصرف النّظر عن المصادرات والأحكام التي تصدرها تلك الحركات «الووكيّة»، التي تسعى في الواقع إلى شهرتها، فإنّ استحضار الجذور يدعّم راديكاليّة حقيقيّة، ما يسمّيه ميشيل فوكو **بارّيزيسيا**[113]، أي قول كلّ شيء، بحرّيّة في الكلام مطلقة، وحرّيّة فكريّة حقيقيّة، وهذا بعيد جدًّا عن الأفكار المبتذلة لامتثاليّة تلك الحركات، التي تعمل بطريقة أحاديّة، وتقصي الآفاق المخالفة والمكمّلة، وتمثّل في عمومها التّشابك الفعليّ للحياة في المجتمع. أي أنّها بعيدة هنا عن المقولة الشّهيرة لفولتير: «لست موافقًا على ما تقول، ولكنّي سأناضل كي يكون لك الحقّ في قوله[114]»!

هل ينبغي التّذكير؟ إنّ الثّقافة الأحاديّة الفردانيّة ولّى زمنها، والاحتداد الذي يميّز «مقاتلي العدالة الاجتماعيّة» ليس سوى إخراج مسرحيّ كاريكاتيريّ لمحاولة إنقاذ تلك الرّؤية الضّيّقة التي تجاوزها الزّمن. يمكن أن نفهم ذلك بفضل مصطلح «التّفسّخ الصّخريّ» في الجيولوجيا: تنشقّ الصّخرة دون أن تتباعد الجوانب المنفصلة. هذه الاستعارة الصّائبة تبيّن بوضوح الشّرخ

---

(113) Parrhêsia: من اليونانيّة بارّيسيس، وتعني قول المرء حقيقتَه بحرّيّة. (المترجم). انظر Michel Foucault, l'Herméneutique du Sujet, Paris, Gallimard, 2001, p. 348 (المؤلّف).

(114) هذا خطأ شائع، من ابتداع كاتبة إنجليزيّة تدعى إيفلين بياتريس هول، زعمت في كتاب «أصدقاء فولتير» الصادر عام 1906 أنّه قال ذلك في دفاعه عن الفيلسوف هلفتيوس، ولم تتراجع عنه إلّا عام 1943 في المجلد 58 من «مجلة اللغة الحديثة» الأمريكيّة بعنوان «ما لم يقله فولتير إطلاقًا». انظر: أبو بكر العيّادي، هل التّاريخ محكمة، مسكلياني، تونس 2022.

الظّاهريّ الذي يسعى إليه «اليقظون» الذين لا يبحثون عن التصدّع بأيّ حال. ولذلك يعزّزون سياسة حفظ الصّحّة أو «الخطر صفر» تدريجيًّا (أو تقدّميًّا) الذي هيّأته البنية التكنوقراطيّة في السّلطة.

يجدر أن نضع، في مقابل ذلك المظهر المتحرّك، الكائن المتعدّد الذي يعمل الفكر الرّاديكاليّ على تحليله، وهو ما لم يتوانَ الفيلسوف بطريقته البارعة عن ملاحظته حين يعلّق على أرسطو: «كينونة الكائن تتبدّى بكيفيّات متعدّدة[115]». وهذا هو المخالف تمامًا للمطالبة المتعلّقة بـ «ببناء» الهويّة الجنسيّة، هويّة النّوع أو العرق، وكأنّها دَين، وتشبه بكيفيّة عجيبة مطالب العاملات التي وسمت الصّراع الطّبقيّ، تلك التي حلّلها **بيان الحزب الشّيوعيّ** لماركس وإنجلز، الذي جعلته النّخب الفكريّة في القرن الماضي كتاب تعاليم دينيّة.

يمكن التّذكير، في نفس السّياق، بالأساس الذي قام عليه علم الاجتماع لدى أوغست كونت، فقد خُصّص كلّيًّا لـ«أنا» مكتفية بذاتها. «كلّ إنسان، يختلف عن نفسه تباعًا...» وهو ما يقوده إلى القول: «توجد أرواح كثيرة في دماغ واحد[116]». ذلك ما يؤسّس بمَضاء لتعدّديّة الفرقاء والهرطقة الفكريّة والتّنوع العلميّ التي تعمل الطّائفيّة السّائدة على إنكارها.

ضدّ الانغلاق في قلعة ضيّقة للهويّة (عرق، جنس، نوع، إلخ.)

---

(115) Martin Heidegger, Qu'est-ce que la philosophie ?, Paris, Gallimard, 1956, p. 51 (المؤلّف).

(116) Auguste Comte, Système de politique positiviste, Paris, Éd. de la Société positiviste, 1929, T. IV, p. 102. (المؤلّف)

يرتكز التّسكّع البدئيّ للطّبيعة البشريّة أساسًا على مبدأ الصّلة، والصّلات المتعدّدة. الأفكار الأمّهات لهذا المبدأ هي قابليّة الانعكاس، والتّفاعل الموجود بين «أنا – أنت»، «أنا – هذا»، «أنا – آخر»، وهو يستوجب عالم صلات، مع الطّبيعة، مع الآخرين، وحتّى مع الجواهر الرّوحانيّة.

كلّ واحد يوجد في مواجهة «آخر-خالد»، حتّى وإن بدا ذلك عصيًّا على الوصف. وهو ما أسميتُه «مثلًا أعلى مشتركًا»، كسبب ومسبّب لحساسيّة الفلسفة البيئيّة[117] التي ما انفكت تتبدّى، أو عودة المقدّس عودة تفجّر الفردانيّة الضّيّقة جدًّا للأنموذج الأنجلوساكسونيّ ومنبعه «الإيثيقا البروتستانتيّة». مقدّس ما قبل وما بعد الحداثة يلحّ على تلك البنية الأنثروبولوجيّة التي هي التّديّن بمعناه الدّقيق؛ لأنّ «التّرابط» يخيّر أن يكون الفرد مرتبطًا، وبالتّالي واثقًا بغيره.

إنّ ما تؤكّده حرّيّة الفكر وتعدّديّة الفرقاء التي هي تعبيرها المباشر، أنّ الفرد، بنيويًّا، لا يوجد إلّا عبر نظرة الآخر وتحتَها. أي أنّ الآخر باختصار هو الذي يخلقني. على عكس **أنا أفكّر، إذن أنا موجود**[118]، مصدر الفردانيّة الأبستيمولوجيّة الحديثة، أنا «مصاب» بالآخر، وهذا أساسُ «قبَليّةِ» ما بعد الحداثة، بصرف النّظر عن الاسم الذي نطلقه عليها: جالية، مجموعة، أخويّة،

---

(117) Écosophie: الفلسفة البيئيّة هو مفهوم صاغه الفيلسوف آرني نيس في جامعة أوسلو عام 1960، في بداية حركة البيئة المعروفة بـ«الإيكولوجيا العميقة»، والتي تدعو إلى عكس منظور المركزيّة البشريّة.

(118) باللّاتينيّة في الأصل Cogito ergo sum (الكوجيتو الدّيكارتيّ الشّهير).

مَشْرَك[119]، إلخ.

من هذا المنظور، فالوجود الاجتماعيّ ليس سوى نوع من تعاقب لحظات أبديّة، يجدر أن نعيشها بشكل أفضل، هنا والآن. الأمر هنا يتعلّق بزمنيّة لا تؤثِر رعب الألفيّة أو الخوف القيامي، بل تكتفي بالعيش يوميًّا تلك العيشة الجماعيّة التي تمثّل أوج كلّ مجتمع جدير بهذا الاسم. هو مثل أعلى لمجموعة بشريّة يسمح بالعيش، دون خوف مشطّ، والإحساس بالتّناهي الخاصّ بطبيعتنا البشريّة.

بعد الفلسفة وعلم الاجتماع، يمكن في هذا الصّدد أن نستأنس بالتّاريخ، فنأخذ مثلًا من بين أمثلة كثيرة ألكيبيادس[120].

في كتاب **حياة العظماء**، يذكّر بلوتارخس[121] بتعدّد الهويّات. بالرّغم من كونه زعيم الحزب الدّيمقراطيّ في أثينا، فإنّه لم يكن يبالي بالدّيمقراطيّة: فهو مدّاح للأقوياء، خائن من أساسه، أي أنّه يتعامل مع كلّ ما يقبل عليه. وسيم، يحبّ الرّجال والنّساء، عشيق سقراط وغيره من فلاسفة المدينة، يلهو ويعيش بهويّاته المتعدّدة ليمثّل صورة رمزيّة للتّعدّد الذي يبقى على مرّ الأزمان.

بصرف النّظر عن بعض المرجعيّات الفكريّة بملامحها التّاريخيّة والفلسفيّة والسّوسيولوجيّة، يمكن أن نجد عدّة أمثلة تصوّر

---

(119) Phalanstère: تجمّع إنتاجيّ دعا إلى إقامته الفيلسوف شارل فوريبه (1772-1837) ليعيش فيه العمّال عيشة مشتركة.

(120) Alcibiade (450 ق م-404 ق م): سياسيّ وخطيب وقائد عسكريّ إغريقيّ بارز في أثينا القديمة. (المترجم).

Plutarque, Vie des hommes illustres, Paris, Ed. Charpentier, 1861, t. 1, p. 478

انظر أيضًا Jacqueline de Romilly, Alcibiade, Paris, Tallandier, 2000 (المؤلّف).

(121) Plutarque (46 -125): فيلسوف ومؤرّخ يونانيّ.

تشابكًا إنسانيّا لا يمكن ردّه إلى وحدة مصطنَعة. و«الووكيّة»، إذ استخدمت ذلك التّشابك في صيغ مختلفة، تعوّل على الخوف الذي يمكن أن تُحدثه أنشطتها، البسيطة في الواقع، لتدعّم استراتيجيّة خوف أعمّ تمارسها السّلطات، التي تزعم «الووكيّة» مقاومتها.

بهذا المعنى، فإنّ هذه «الووكيّة»، بحسب عبارة أوغست كونت الصّائبة والشّهيرة، هي تعبير أَوْجيّ عن «الاختزال إلى الواحد» الذي راج طوال عصر الحداثة: فردانيّة، دولة-أمّة، منظومات توحيديّة كبرى... كلّ ذلك يبلغ ذروته في عموديّة مطلقة لدولة مركزيّة بيروقراطيّة تكنوقراطيّة. ذلك التّقليص البنيويّ هو الذي يدعّم تفوّق **الأخ الأكبر** الدَّوْليّ.

فعبر مطالبات متعدّدة تؤدّي إلى تنديدات عديدة، يبسط تطبيع الوجود طيفه الشّبحيّ بكيفيّة محيّرة. صحيح أنّ تلك الاحتجاجات تندرج في المنطق الحميم «للاحتجاج»، في أدنى اشتقاقاته: **تشهد مع**[122]، أي تضع نفسها مع ما تزعم مقاومته في نفس المدار. وهذا في معناه الأدقّ أثر منحرف، وموقف مؤذٍ يستخدم طرقًا مختلفة للوصول إلى نفس النّتيجة: تعقيم الوجود، وجعله أملس، بلا نكهة.

صحيح أنّه لا مجال لمساندة السّلوك الفظّ والسّمج والحيوانيّ، بأيّ طريقة كانت، لمنتجي السّينما وأصحاب المؤسّسات والصّحافيّين والسيّاسيّين وحتّى الجامعيّين الذين يستغلّون نفوذهم في غياب قوّة إغراء نزيه. فهم نتاج ذلك البؤس الجنسيّ الكبير الذي تحدّث عنه

(122) باللّاتينيّة في الأصل con-testare

فيلهلم رايش[123]. ورغم ذلك، فالحديث يجري عن ضحايا غنيّات متعلّمات أكثر ممّا يجري عن البائعات وعاملات المتاجر الكبرى، اللّاتي يعتبر رفضهنّ الانصياع إلى رؤسائهنّ الصّغار ضياع عملهنّ في الحال.

مثل برتغاليّ ذو غائيّة عِنائيّة[124] يلخّص هذا المسعى: **الرّبّ يكتب مستقيمًا بأسطر معوجّة**[125]. هذه الاستعارة تؤكّد جيّدًا أنّ ما يبدو مختلفًا ينضوي، في الواقع، إلى منطق مماثل تمامًا. فالرّبّ هنا استعارة للدّولة الفوقيّة التي تستطيع استخدام احتجاجات «معوجّة» نوعًا ما، لتحسّن سيطرتها عن طريق خلق حياة اجتماعيّة بلا انحراف أو خلل أو نُبوّ. ودعاة «الووكيّة» بهذا المعنى، بصرف النّظر عن «يقظاتهم» المزعومة، يساهمون في مَذهبة معمّمة تسبق انتصار الموت.

يمكن أن نضع في مواجهة تلك الاحتجاجات المطبّعة بطريقة طريفة ما كانت عليه الفنون غير المتناسقة، تلك الحركة الفنّيّة التي قادها جول ليفي في نهاية القرن التّاسع عشر، والتي طغى عليها المزح والسّخرية من الرّوح البورجوازيّة ذات البنية الامتثاليّة، حيث يمكن أن نقرأ «رجاء عدم البصق على السّقف» أو تأمّل لوحات ذات لون واحد عنوانها **معركة زنوج في اللّيل**، أو **أوّل تعميد لفتيات**

---

(123) Wilhem Reich (1897-1957): طبيب نمساويّ ينتمي إلى الجيل الثّاني من المحلّلين النّفسيّين بعد سيغموند فرويد.

(124) Providentialiste: نسبة إلى المذهب القائل بأنّ العناية الإلهيّة هي مبرّر الوجود.

(125) بالبرتغاليّة في الأصل Deus escreve directo por linhas tortas

مصابات باليرقان في طقس ثلجيّ، أو **جني أحبار معرّضين للسّكتة لطماطم على ضفّة البحر الأحمر**، دون أن ننسى مارسيل دوشان[126] ولوحته الشّهيرة **عروس عرّاها عزّابها أنفسهم**.

تلك بعض تجلّيات عقول حرّة قد تُرجف سدنة الأخلاق بشتّى أطيافهم، أولئك الذين يعملون باسم الجنس والعرق والنّوع على حظر أكبر عدد ممكن من الكلمات. إن أزلنا الاختلافات، وحذفنا ما ينبو، ومحونا المخاوف المتعلّقة بالطّبيعة الإنسانيّة، فسوف ندعم الخوف المنتشر والأكثر خطورة، ذلك الذي تثيره الامتثاليّة، المميتة في جوهرها.

الامتثاليّة التي أحسن تحليلها غي هوكنغيم في حديثه عن أولئك الذي انتهوا إلى روتاري، إذ كانوا محتجّين يستهزئون بموثّقي العقود وصاروا بدورهم موثّقي أكثر العقول ضيقًا، وما ذلك سوى تطبيع منطقيّ لمن هم متعطّشون إلى السّلطة والاعتراف والاحترام. أذكر في هذا الصّدد ملاحظة هوغو مارسان، وهو كاتب وصحافيّ بمجلّة **غي بيي**[127]، حيث انتقد في ذلك الوقت مشروع ارتباط مدنيّ بين أزواج من نفس الجنس. هذا المطلب، الذي ازداد تضخيمًا في ما بعد بمطلب «الزّواج للجميع»، كان في نظره الثّمن الذي ينبغي أن يدفعه المثليّون المصابون بالإيدز لمخالفتهم القواعد، وخاصّة قاعدة الزّواج الأحاديّ البورجوازيّ. تلك الأحاديّة هي التي تميّز «الووكيّة» بمعناها الواسع، أي أنّها ليست فكرًا بل هي عناصر

(126) Marcel Duchamp هكذا يُنطق وليس دوشامب كما شاع في المشرق.

(127) Gai Pied: مجلّة فرنسيّة شهريّة ثمّ أسبوعيّة خاصّة بالمثليّين (1979-1992).

خطاب تزوّدهم بها السّلطة القائمة وتستظهرها حتّى الملل البروباغندا المسترسلة لوسائل إعلام توصف بالتّرويج لثقافة الجمهور العريض!

شعيرة الشّغب أو الثّورات المستشرية بشتّى أنواعها تندرج في الواقع في مسرحة عامّة للحياة الاجتماعيّة. يمكن تأويل تلك «الشّعائر الاجتماعيّة» كتجديد لقربان الأقدمين الذي تتمثّل وظيفته الأساسيّة في حجب الذّعر الذي توجد فيه الحداثة المحتضَرة. والاحتجاجات «الووكيّة»، في العقليّة الحصاريّة الرّاهنة، إذ تمسرح الانحلال الهرطقيّ أو الانحراف الخُلُقيّ، إنّما تقنع في الحقيقة بالتّعبير عن قبولها الخانع بالتّعاليم المعلَنة، ولو بكيفيّة مُداجية، باستسلام مطلق للسّلطة القائمة، وهو جوهر كلّ احتجاج كما أسلفت.

الخوف الظّرفيّ لأقلّيّة، جنسيّة كانت أم عرقيّة أم نسويّة أم إيكولوجيّة، تقنع بحجب خوف متفشٍّ أكثر أهمّيّة: خوف مصير بشريّة تهمين عليها مادّيّة بلا أفق، تغلب عليها أيديولوجيا التّنمية لأجل التّنمية، التي تشدو بها لازمة «القدرة الشّرائيّة» الشّهيرة. أمّا غلبة العيش الكريم فهي انحراف، لأنّها تحجب جوهر الأنسيّة الذي يستند إلى «العيش الأفضل».

ينبغي التّساؤل عندئذ ما إذا كانت البنى «الووكيّة» لا تعبّر في الواقع عن خوف من الذّات، ذات صغرى ضيّقة، لا تتوصّل إلى إدماج الـ«ذّات» الأوسع التي يتحدّث عنها كارل غوستاف يونغ، توحّد بين الأحياء كافّة، أحياء اليوم وأحياء الماضي الذين يشكّلون

التّقليد، والطّبيعة بوجه عامّ والوعي الجمعيّ. أمّا الذّات الصّغرى، التي تحتجّ بكيفيّة عنيفة نوعًا ما باسم خصوصيّة ضيّقة، فهي تتناسى تماما الكينونة التي يملك فيها كلّ فرد مكانًا مشروعًا يجدر احترامه.

والاحتجاجات، السّطحيّة في جوهرها، إذ تتناسى ذلك، تغدو حماقات تواجه واقعًا باليًا: واقع الحداثة وقيمها. ولذلك فإنّ التّقلّبات الظّاهرة والوقاحة وغيرها من أعمال التّشويش المتعدّدة الأشكال (وتلك خاصّيّة الممارسات «الووكيّة») لا تعمل إلّا على دعم ما تزعم التّشنيع به بصوت عالٍ.

لقد فهمنا أنّ تلك الاحتجاجات المتصنّعة ليست سوى نسخ باهتة من **نهاية العالم**، تلك اللّوحة الرّائعة التي أنجزها دورر[128] عام 1498. العالم كما تخيّله، حيث يمكن سماع صوت حوافر الخيل وصليل السّيوف، بقوّة تفوق الشّكاوى المملّة لتظاهرات أقلّيّة يبرزها إعلام متعطّش إلى كلّ ما هو سطحيّ. يمكن أن نستشهد هنا بمالارميه: «تُلغى تُحفةُ مبتذلاتٍ صوتيّة... بتلك الأداة الوحيدة التي يفخر بها العدم».

يذكر سيرج موسكوفيسي[129] أنّ الأقلّيات النّشيطة تستخدم دومًا تمنيّاتها القياميّة بالاستناد إلى عدم شعورهم بالأمان اقتصاديًا ونفسانيًّا، ولكنّ الضّيق الذي هو محرّك الأقلّيّة يشغّل آليّة

---

(128) Albrecht Dürer (1471- 1528): نقّاش ورسّام ألمانيّ من عصر النّهضة.

(129) Serge Moscovici, Psychologie des minorités actives, Paris, PUF, 1976
انظر أيضًا
Jean-Marie Seca, Conduites minoritaires et représentations sociales, Éd. universitaires européennes, 2010 (المؤلّف).

انغماديّة[130]: تلك التي تدفع إلى الاحتماء بسلطة الدّولة والنّظام القضائيّ أو بالمؤثّرين، أي وسائل إعلام الجمهور العريض، لأنّ هذا العالم الصّغير بكلّ بساطة يشترك في التّمثّلات الاجتماعيّة نفسها، ففوضويّة الأقليّات الظّاهرة هي في الواقع قريبة جدًّا من **ناموس** القانون الرّسميّ، هدفها الأساس هو تعريف الأغلبيّة الرّسميّة بخصوصيّتها الثّقافيّة: العرقيّة، الجنسيّة، إلخ. وهي ظاهرة مقاومة ضغط بامتياز، من جهة إدماج خصوصيّة فريدة في الجوقة العامّة للنّظام القائم.

ما يميّز تلك الاحتجاجات الرّخيصة هو «أن تحيا المجموعة عصرها بالوكالة» أي دون الانخراط حقيقة أو كليًّا. تحاليل غي هوكنغيم التي أسلفت ذكرها أعلاه تبيّن أنّ الحياة بالوكالة هي عدوّ الحياة[131]. تقمّص دور الوكيل ليس عمل أناس شجعان بحقّ، إذ يدفعون الآخرين إلى بطولة هم عاجزون عنها.

يمكن أن نصوّر استيهام الوكيل بمثال معاصر شغَل تعاليق علية القوم: الأعمال العديدة للجمعيّات المحلّيّة للفيدراليّة الوطنيّة للفكر الحرّ وهي تدعو إلى تحطيم الصّلبان أو تماثيل القدّيسين المشيَّدة قبل 1905[132]، وكذلك، وإن بطريقة قريبة بشكل مفارق، الشّك الآليّ الذي يلفّ الإكليروس الكاثوليكيّ عقب تقرير

---

(130) Involution: دخول جزء من نسيج ما في نسيج آخر.

(131) Lettre ouverte à ceux qui sont passés du col Mao au Rotary, p. 41. (المؤلّف).

(132) 9 ديسمبر 1905 هو تاريخ سنّ قانون الفصل بين الكنيسة والدّولة في فرنسا.

سوفيه[133]، المتمخّض عن اللّجنة المستقلّة حول الانتهاكات الجنسيّة في الكنيسة.

يمكن أن نعتبر، ولو على حساب مختلف أطراف تلك الأحكام، أنّهم يجرّون خلفهم ضررًا، إساءة حقيقيّة إلى الشّأن العامّ بإثارة عمليّات مسرحة فرجويّة عفا عليها الزّمن. فالطّرفان يسيئان إلى المنظومة العَلمانيّة.

ثمّة لازمة تتكرّر في الجدل العامّ هي لازمة العَلمانيّة. فهي كلمة من تلك الكلمات الحقائب التي لم تعد تعني أيّ شيء لكثرة استعمالها كيفما اتّفق، وتمنع خاصّة التّفكير حقًّا في الموضوع المعنيّ. مصطلح «الأخ لاي[134]»، كما شرحت ذلك في كتاب سابق[135]، يعني في الأصل شخصًا في الأديرة جُعل لخدمة الرّهبان المتديّنين الذين هم إكليروس حقيقيّون، و«لايْ» من اليونانيّة **لاووس** بمعنى الشّعب. والنّعت «لايكي» في سياق الأفكار نفسه مرجعُه الشّعب الذي جُعل لخدمة «المنفصلين» (الرّهبان) الذين لا يتعاطون الأعمال المبتذلة الخاصّة بالحياة اليوميّة. غير أنّ مطلب اللّائكيّة صار، بكيفيّة غريبة، واقع طبقة إكليريكيّة تسعى إلى طرد ما تبقّى من قداسة في

---

(133) نسبة إلى جان مارك سوفيه Jean-Marc Sauvé الذي ترأس لجنة للتّحقيق في العنف الجنسيّ ضدّ الرّاهبات داخل الكنائس الفرنسيّة.

(134) Frères lai: الإخوة لايْ، وكذلك الأخوات لاي، هم عَلمانيّون مرتبطون بالطّوائف الدّينيّة الكاثوليكيّة، حيث يهتمّون أساسًا بالزّراعة والأعمال اليدويّة والشّؤون الدّنيويّة للدّير، بخلاف رهبان الخورس المكلّفين بالمهامّ الرّوحيّة.

(135) M. Maffesoli, Le Trésor caché, lettre ouverte aux francs-maçons et à quelques autres, Paris, Léo Scheer, 2015

انظر أيضًا La Nostalgie du sacré, Paris, Éd. du Cerf, 2020 (المؤلّف).

الحياة الاجتماعيّة. والأمر من هذه الزّاوية قلب للمعنى: بعبارة أوضح، «أنصار اللّائكيّة» صاروا «الرّهبان» الجدد لديانة دنيويّة. رهبان يردّدون معتقد لائكيّة تجريديّة نوعًا ما، دون أيّ تأثير على الحياة اليوميّة.

وقائمة أعمال «المفكّرين الأحرار» خير مثال على ذلك. عن هؤلاء، ينبغي التّذكير بالتّعريف الذي نعتهم به نيتشه بطريقة لاذعة: «لا أحرار ولا مفكّرون».

ومهما يكن من أمر فإنّ الجمعيّات المحلّيّة للفيدراليّة الجنوبيّة تعمل بشكل يوميّ على حظر مِذْود الميلاد في الأفضية العامّة البلديّة أو قرع أجراس الكنيسة ثلاث مرّات في اليوم بمناسبة صلاة التّبشير، كما تعمل على إزالة الصّلبان وتماثيل مريم العذراء والملاك القدّيس جبريل أو البابا الذي رحل حديثًا، وهي تماثيل نُصبت في الأماكن العامّة، مخالفة بذلك قانون 1905، الذي يمنع بصرامة أيّ إعادة تنصيب علامات دينيّة خارج الأماكن المخصّصة لحياة العبادة.

مثال بسيط يسمح بتصوير ذلك السّلوك «الووكيّ» تصويرًا جليًّا. في بداية القرن العشرين، وفي إطار العمل البروتستانتي «أندري نوما برتران وجوانّيس كورنولو»، وضع رهبان كاثوليك في قطيعة أو خلاف مع رؤسائهم، أثناء احتفال نظّموه، باقة أزهار على قاعدة تمثال إتيان دوليه[136]، وهو أنَسيّ هلك في محرقة، «كردّ اعتبار

(136) Etienne Dolet (1509-1546): كاتب وشاعر ومطبعيّ، تمّ إعدامه حرقًا بتهمة الهرطقة.

لضحايا عدم التّسامح الدّينيّ[137]». وكانت تلك مقدّمة لدعاوى قضائيّة بهدف إزالة تماثيل أو علامات دينيّة تنتمي إلى المشهد اليوميّ للسّكان، من هذا المكان العامّ أو ذاك، وامّحت دلالتها الدّينيّة المباشرة لتندمج في عادات الحياة اليوميّة للمكان وتقاليده.

على أيّ حال ينبغي الإشارة إلى أنّ تلك الجمعيّات التي ترفع مذهبها الكهنوتيّ لتقاوم ما تَعدّه بقايا الإكليريكيّة الكاثوليكيّة تدعّم المقاومة الدّينيّة للأهالي المحلّيّين. مثال تراجيديّ للنّتيجة المغايرة: الهدف الذي تمّ تحقيقه هو عكس ما كان متوقّعا تمامًا. ينبغي القول إنّ أغلب أطراف تلك الجمعيّات سبعينيّون، وإنّ ذلك النّمط من الفعل لا يحشد الأجيال الشّابّة أبدًا! هم يدلّون في أكثر من وجه على عودة ما أسماهم هويسمان[138] في روايته **في الطّريق** «الطّهرانيّين المتعصّبين[139]»، أولئك المتزّمتين الذين يعلنون باسم طهرانيّتهم عن البلايا التي يرسلها الرّبّ: حروب، أوبئة، مجاعات وبعض الطّرائف.

أمّا تقرير سوفيه، الذي ينقل الأشغال التي قامت بها اللّجنة المستقلّة حول الانتهاكات الجنسيّة في الكنيسة الكاثوليكيّة، والتي أمرت بها وموّلتها الأسقفيّة الفرنسيّة، فليس من شأني الحكم عليه. ألاحظ فقط أنّ العدّ الإحصائيّ المستعمل قابله أعضاء أجلّاء من

---

(137) Jean-Pierre Chantin, Catholiques malgré Rome. Des croyants infidèles en France. XIVè-XXè siècles, Paris, Éd. du Cerf, 2022, p. 271 (المؤلّف).

(138) Joris-Karl Huysmans (1848-1907): كاتب وناقد فنّي فرنسيّ.

(139) Mômier: يقال عمّن ينتمي إلى طائفة بروتستانتيّة تتميّز بالتشدّد، والمنشقّ عن كنائس الدّولة في سويسرا خلال القرن التّاسع عشر.

الأكاديميّة الفرنسيّة باعتراض شديد، ولعلّ ذلك أبرز ما نبا من الحركة النّقديّة الأكثر اتّساعًا، وهو ما دفع البابا فرنسيسكو إلى إرجاء اللّقاء الذي كان سيخصّصه للّجنة المعنيّة. لم يحدث جدل، وبقي اعتبار كلّ الرّهبان مسؤولين عن أخطاء شخصيّة صرف، اقترفتها نسبة ضئيلة منهم، وحتّى إدانة الوظيفة الإكليريكيّة نفسها.

تلك المظاهرات المختلفة تندرج ضمن «الووكيّة» المهيمنة، «ووكيّة» أجيال متّهِمة انساق خلفها الوكلاء ومختلف سدنة الأخلاق بسهولة. عندما نمتلك **الحقيقة**، يجدر فرضها على العالم أجمع، وذلك منطق كلّ محكمة تفتيش. غير أنّ نجاح هذه التّفتيشيّة ليس نهائيًّا بالمرّة، إذ يمكن مداورتها بتقاليد هرطقيّة أحيانًا ومنفتحة على الحكمة الشّعبيّة.

5

تمرّد الشّعب

أمّا أنا فأنتظر القوزاق والرّوح القدس.
كلّ الباقي ليس سوى قذارة.

ليون بلْوا

نتذكّر السّؤال الشّهير للملك لويس السّادس عشر، في 14 يوليو 1789: «ولكن، أهو تمرّد؟» وجواب الدّوق دو لا روشفوكو، المقتضب: «كلّا يا مولاي، هي ثورة». لو نطبّق ذلك على الوضع الحاليّ، فهل هي ثورة قائمة؟ لنذكّر بالأصل الاشتقاقيّ للكلمة revolvere «سحَب إلى الخلف» التي تعبّر عن الحركة المداريّة الدّوريّة لكوكب أو قمر صناعيّ، وهي استعارة مفيدة في فهم تغيّر مفاجئ، عنيف أحيانًا، في تنظيم سياسيّ أو اجتماعيّ ما.

ولكنّ التّغيّر العميق صعب الإدراك، ولا سيّما بالنّسبة إلى الذين يسمّيهم هيغل «المثقّفين المجرّدين»، المنغلقين انغلاقًا تامًّا في «جمهوريّة الآداب»، أولئك الذين يمكن أن نقول عنهم بكلام مألوف يصعب عليهم أن يعرفوا متى تنضج الثّمرة، أي أن يلاحظوا أنّ التّمرّد يدوّي، إذ لا بدّ من خلق فكر ملموس لإدراكها.

هل ينبغي التّذكير بأنّ غاية الخوف هو أن نُبقي العالم في حالة عبوديّة، ونستعمل لأجل ذلك كلمات سحريّة، تلك التي نسميّها الآن «عناصر خطاب» أو «السّرديّة» لإثارة الخوف وفرضه انطلاقًا من أحداث تؤوَّل بكيفيّة أحاديّة من دون نقاش. فيغدو وضعُ تلك «السّرديّة» موضعَ تساؤلٍ مثارَ شكٍّ في كونه «تآمريّة» خالصة.

«المادّيّة التّاريخيّة»، الموروثة عن الأيديولوجيا الماركسيّة والتي تفضّل حياة هنيئة قصيرة النّظر، وكان جان بودريار قد أحسن تحليلها إذ تحدّث في زمنه عن **منظومة الأشياء** وكذلك عن **مجتمع الاستهلاك**. وحتّى في أيّامنا هذه، فإنّ مختلف الخطابات القصيرة النّظر والممضّة إلى حدّ بعيد عن «القدرة الشّرائيّة»، دون أن ننسى نسبة التّضخّم والكلام المعاد من نفس الطّينة، لا تتصوّر الحياة الاجتماعيّة إلّا في ضوء أشدّ المذاهب الاقتصاديّة صرامة.

ولكن هل العملة هي المعيار الوحيد للقيم الإنسانيّة؟ هذا ليس مؤكَّدًا. صحيح أنّ أيديولوجيا الطّبقة الحاكمة مؤلّفة تمامًا من ذلك المذهب الاقتصاديّ، والضّرائب التي يفرضها ترتكز على مجرّد معتقدات تُقدَّم على أنّها حقائق علميّة، والحال أنّها ليست سوى تمثّلات مرقّمة وآراء من أوهن ما هناك، لا تلبث الأحداث أن تجعلها لاغية.

صيغ سحريّة وأيديولوجيا مادّيّة تثير ساديّة حقيقيّة تشبه الكوابيس الجهنّميّة التي تستعيد قوّتها بانتظام في التّواريخ البشريّة. وعديدة هي المتاحف الأوروبيّة التي تعرض أعمالًا فنّيّة تصوّر نهاية

العالم ويوم القيامة. بعض لوحات جيروم بوش وفان أيك[140] أو الجداريّة العظيمة لمايكل أنجلو في سيستينا[141] تصوّر عقاب المعذّبين الذين خالفوا الأوامر والعقائد التي أملتها السّلطة الدّينيّة القائمة. وهو جزع جديد من نفس النّوع تثيره السّاديّة الوحشيّة للنّخب الحاكمة.

ولكن، حذار، فالهلع له زمن محدود، كما هو معروف. لا بدّ أن يكون الفكر الرّاديكاليّ متنبّهًا للتّململ الاجتماعيّ الذي يلغّم من الدّاخل الخضوع الظّاهريّ للشّعب. إنّها الرّاديكاليّة التي ندين بها لبودريار أو للبحث الجذموريّ الذي صاغه جيل دولوز، بوصف الجذمور ساقًا جوفيّة حيّة تُعدّد النّباتات، وتلك استعارة جميلة تؤكّد أهمّيّة ما أسميته منذ زمن بعيد «المركزّيّة الجوفيّة» التي هي أساس كلّ عيش مشترك، أيًّا ما يكن.

وهذا ما يفسّر، في أحيان لا نتوقّعها، وجود كارثة قياميّة هي كشف ناجم عن «قوزاق» بعبارة ليون لبوا، أو «الرّوح القدس»، أي ثورة في الدّنيا تسقيها القوى الرّوحانيّة في الوقت ذاته. أليس ذلك ما يميّز خير تمييز **الميتاسياسة**: معركة تغيّر وجه العالم، وتجدّد بعمق الحياة الاجتماعيّة، دون اللّجوء إلى العمل السّياسي كما تمّ تصوّره على مدى الحداثة، والذي نلاحظ يومًا بعد يوم تفاهته وبطلانه؟

---

(140) Jérôme Bosch (1450-1516) و Jan van Eyck (1390-1441): رسّامان هولنديّان من عصر النّهضة الفلمندريّة.

(141) Sixstine أو Sistina بالإيطاليّة: أكبر كنيسة في القصر البابَوي بالفاتيكان.

ينبغي فعلًا التّنبّه لعفويّة عبقريّة الشّعوب التي تعبّر عن نفسها أحيانًا بقوّة. «عبقريّة» Génie من ناس Gens، أي مجموع كائنات بشريّة، يُنظر إليها نظرة شاملة. عبقريّة الشّعوب هي إذن كيفيّة أخرى لتسمية المثل الأعلى الجمعيّ الذي هو القّوة الأساسيّة لكلّ حياة اجتماعيّة.

انطلاقًا من تلك الإيثيقا المبدئيّة أمكن أن يكون للشّعب معنى اللّياقات التي تنظُم الحياة الاجتماعيّة، فإن غابت هدرت الثّورة، وظهر تأجّجها السّرّيّ للعلن، وهو ما يفسّر تكاثر الانتفاضات التي تسِم المرحلة الحاليّة وخاصّة المرحلة القادمة. من «السّترات الصّفراء» في فرنسا إلى «مواكب الحرّيّة» في كندا، دون أن ننسى حركات الاحتجاج العنيفة نوعًا ما في هولندا وبولندا وكولومبيا وغيرها، فقائمة التّعبيرات عن ريح التمرّد، التي تميّز مخاض مجتمع ما بعد الحداثة، طويلة.

هي انتفاضات «تشاركيّة» حيث الـ«أنا»، مبدأ الفردانيّة الذي كان عماد الحداثة، ترتفع إلى «نحن» متعالٍ، هو ضمير البيشخصيّة[142]، ضمير الذّبذبات المشتركة. ذلك ما يطلق عليه علم الاجتماع «التّآلف»: تشارك المشاعر والأحاسيس والانفعالات المختلفة، ويذكّر بأنّ مبدأ العلاقات هو جوهر «الإنسان السّياسيّ» الأرسطي، فما يثير الانفعال هو دائمًا فأل خير لكونه ترياقًا للخوف.

بكيفيّة منتظمة، يفرز الجسد الاجتماعيّ، من ذاته، نمط وجود، طريقة تفكير تلغي آثار سمّ أو فيروس، لأنّ المسألة مسألة عدوى.

(142) Intersubjectivité: علاقة بين شخصين.

استراتيجيّة الخوف التي وضعتها نخبة مهمَلة يمكن أن تعمل لمدّة معيّنة، وتلك خاصّيّة سلطة المؤسّسة والبغبغة الإعلاميّة الرّهيبة. التّكرار الآليّ لمصطلحات تُستخدَم خارج إطارها ودون دلالة كبيرة لا تعدَم فعاليّة ظرفيّة، ولكنّ الحكمة الشّعبيّة تعرف جيّدًا أنّ **كلّ شيء يَمرّ، كلّ شيء يُمَلّ، كلّ شيء ينكسر!**

التّخلّي عن حرّيتنا شيء معتاد. وإتيان لا بويسي، الذي استلهم من القدامى أمثال بلوتارخس وفرجيليوس وأريوستو[143]، أبدع تصوير ذلك المسعى في كتابه **خطاب العبوديّة الطّوعيّة**، الذي يُعَدّ اتّهامًا للاستبداد وتحليلًا لأسباب الخضوع. ولا ننسى أنّه أيضًا تشكيك في شرعيّة الحكّام الذين يسمّيهم «أسيادًا» أو «طغاة». ولكنّ هرم السّلطة، ذلك الذي نسمّيه في وقتنا الحاضر التّكنوبيروقراطيّة، لم يعد يُحرز نجاحًا، عن تعب أو ملل أو استنزاف، وبذلك يفقد الطّاغية كلّ سلطة مكتسبة، فينقلب الخوف ويصبح الطّاغية هو الذي يعيش في خشية.

لقد اعتبرنا، عن حقّ، أنّ لا بويسي رائدٌ فكريّ للأناركيّة، وحتّى للعصيان المدنيّ، وهو ما يتبدّى في إحدى عباراته الشّهيرة: «احزموا على عدم الخدمة بعد اليوم تصبحوا أحرارًا.» هذا الأمر هو الذي يرجح أحيانًا. ثمّة كلمة تترجم ذلك تمامًا هي الطَّفْح. لمدّة طويلة، ظلّ الخوف الذي يثيره الاستبداد الصّحّيّ يؤتي مفعوله. ولكن،

---

(143) Arioste: لودوفيكو أريوستو Ludovico Ariosto (1474-1533) الشّهير بـ «لاريوستو»: شاعر إيطاليّ من عصر النّهضة، عرف بقصيدته الملحميّة «أورلاندو الهائج».

بفعل ترسّب بطيء لردّة فعل آليّة التّرهيب، **طفح الكيل** فجأة. وكما يقول الرّشاد الشّعبيّ «الأمر فاق كلّ حدّ!» وإذا بالانتفاضات على شتّى اختلافها ترى النّور.

يمكن أن نقارن مسار الطّفح ذاك بما أسماه برغسون «الأنا السّفلى» للامتثاليّة السّائدة، حيث تنفجر القشرة وتخرّ أمام «دفع لا يُقاوَم». وهذا يتأتّى في نظره من الفكرة العميقة «للسّعادة والشّرف[144]». لا يمكن أن نعبّر أحسن من ذلك عن الغليان أو التّوتّر المتنامي النّاجمين عن تلك الغريزة الحيوانيّة التي تمثّل القلب النّابض لكلّ جنس بشريّ، والتي تعبّر عن نفسها، من حين إلى آخر، بالقوّة التي نعرف.

ذلك هو الصّعود من الأعماق للقوّة الشّعبيّة، كقوّة مؤسِّسة، ضدّ السّلطة المتأسّسة. في بعض الأحيان، يكون اللّجوء إلى النّخب هو الأرجح، ولكن إذا لم تعد تلك النّخب منسجمة مع الانتظارات اليوميّة، فإنّ الأولويّة لنداء الشّعب. ذلك هو منطق مسار الطّفح: ما تمّ إعداده في سرّيّة المجتمع شبه الرّسميّ يظهر للعلن، فيتبدّى التّململ الدّاخليّ عندئذ علنًا، ويطفح الإناء بآخر قطرة حتّى يفيض من جوانبه، قبل أن يفرض وضعٌ آخرُ نفسَه.

ولكنّ العمى يلزم الصّحافة والبيروقراطيّة حتّى آخر لحظة، فهما لا تستطيعان الرّؤية، أو أنّهما لا تريدان رؤية التّململ الثّقافيّ الذي ترتّب فيه بصعوبة واحتشام انعكاس القطبيّة الجارية، فتلك النّخبة

---

(144) Henri Bergson, Essai sur les données immédiates de la conscience (1889) dans Œuvres, Paris, PUF, 1970, p. 112. (المؤلّف).

لا تعي إلّا تدريجيًّا أنّ الخوف يغيّر موضعه، لأنّها غضّت النّظر تمامًا عن الحياة الملموسة، نتيجة طريقة تفكيرها أو نمط إدارتها.

لقد بدأ الاعتراف والقول إنّ انقطاعها عن الواقع مردّه إلى موقعها العموديّ في بنيته. نعرف أنّه يمكن تعريف الاتّفاق القائم بين الشّعب والنّخبة الرّاهنة، سواء أكانت أوليغارشيّة أم ملكيّة أم جمهوريّة أم ديمقراطيّة، بحسب «موضعيّة» معيّنة الموقع الذي يصنّفها. المؤرّخون يُؤكّدون أنّ العموديّة هي دائمًا علامة أخطر انقطاع عن الواقع، لكونها تؤكّد المسافة الموجودة بين القوّة (السّيادة) الشّعبيّة والمؤسّسة التي يُفترَض أنّها تمثّلها، أي السّلطة القائمة.

الأمر، في معناه الأدقّ، يتعلّق بإنكار: لا نريد أن نتذكّر، وبالتّالي أن نرى، ما هو أساس كلّ تنظيم اجتماعيّ. وهذا يؤدّي، في ما يخصّ الوضع الحاليّ، إلى بروز ديمقراطيّين هم أبعد ما يكونون عن الشّعب. نتذكّر، وهذا ما أسلفت ذكره، أمثلة قلب المعنى التي تحدّث عنها أورويل في «اللّغة الجديدة»، المتجلّية في روايته **1984**، مثل وزارة الحرب التي صار اسمها وزارة الحبّ. شيء من هذا القبيل صار محلّ رهان حين تتمثّل الدّيمقراطيّة في احتقار الشّعب. وهذا يقود أشباه الدّيمقراطيّين أولئك إلى وضع استراتيجيّة الخوف، استراتيجيّة الاستبداد الأمنيّ، لبسط هيمنتهم.

بيد أنّ التّواريخ البشريّة تبيّن لنا أنّ ذلك لا يمكن أن يدوم أبدًا على طول المدى، فالانفجارات تجدّ بانتظام، وهو ما أسميته «المركزيّة الجوفيّة». بكيفيّة أكثر رومانسيّة، يذكّرنا ميخائيل باختين

أنّ «شهوة التّدمير هي في الوقت نفسه شهوة خلّاقة». وهي كيفيّة جيّدة لجلب الانتباه إلى الحيويّة الشّعبيّة التي تستعيد بانتظام صلابة جديدة في الانقلابات والحركات الثّوريّة ومختلف أشكال الانتفاضات.

يذكّرنا جورج زيمل[145]، نصير فلسفة الحياة، بأنّ تلك الحيويّة تعبير عمّا يسميّه بأناقة «المِلك السّرّيّ» للمرحلة. ملك مستتر، سرّيّ، خفيّ، لا يهمّ، إذ يكفي أن نعرف أنّ بجانب المجتمع الرّسميّ يوجد أساسٌ غير رسميّ من الصّعب في النّهاية أن ننكر أهمّيّته. هذا «الملك السرّيّ» يميل في الزّمن المعاصر إلى التّعبير عن نفسه بشتّى الطّرق. أشرت إلى ذلك في أكثر من مناسبة. الامتثاليّة بطبيعة الحال تعتبر أنّ ذلك شعبويّة، وتزدري باستعلاء مختلف حركات الاحتجاج إذ تعزوها إلى شعب قليل التّعلّم، بل أحمق.

ولكنّ حضور «الملك السّرّيّ»، سواء في المظاهرات العنيفة أم المظاهرات الهادئة، في ظواهر الامتناع عن التّصويت أم اعتزال الحياة المدنيّة، لم يعد بالإمكان إنكاره.

هذا النّزوع إلى الانتفاض قويّ بشكل خاصّ لدى الأجيال الشّابّة التي تجهل في معظمها السّياسة والانتخابات والالتزام الحزبيّ والانخراط النّقابيّ، ولكنّها تتجنّد بكثافة في الفعاليّات الثّقافيّة والرّوحانيّة والصّوفيّة والإيكولوجيّة وتتضامن في ما بينها في دعم التّحوّل المرحليّ الجاري.

في العمق! هنا يجدر بنا أن نفهم في هذه اللّحظة القياميّة ما نعيش.

---

(145) Georg Simmel (1858-1918): فيلسوف وعالم اجتماع ألمانيّ.

فما تنبئ به هو لحظة الإنسان المستتر، حارس التّقاليد. ينبغي العودة إلى هذه الثّيمة، ولكن من الآن يمكن التّذكير بأنّ كلّ ذلك، في معناه القويّ، تعبير عن سيادة الشّعب. قوّة مخيال بديل يقلب كلّ المؤسّسات أيًّا ما تكن، اقتصاديّة، سياسيّة، اجتماعيّة وحتّى دينيّة!

الإنسان المستتر، «الملك السّرّيّ» أو ما أسميته «المركزيّة الجوفيّة»، عديدة هي الاستعارات التي تذكّر بأنّ أوقات الأزمة تنتج تمجيدًا للحياة، وإعادة خلق للوجود في وجه ما، وخروجًا من السّبل المألوفة، بعبارة أبسط. الأزمة هي في الوقت ذاته ما ينحلّ وما يُعاد تشكيله انطلاقًا من وضعيّات تمجيد، كما كان الشّأن بعد الرّومانسيّة، وبعد السّرياليّة، وبعد حركة ضدّ الرّاهنيّة[146] التي تدعو إلى «الرّغبة في العيش دون وقت ميّت والتّمتّع بلا عوائق». وهو ما يستوجب فكرًا ملموسًا يكون مثل إطلاق سجين، مدرسة حياة تسمح بتجاوز الشّدّة النظريّة المتفاقمة لهذه اللّحظة.

كتيّب عن البؤس في الوسط الطّلّابيّ (ستراسبورغ، 1966)، وهو عبارة عن بيان ألهم طلّاب نهاية السّتّينات، كان قد ندّد في ذلك الوقت بالبيروقراطيّات النّقابيّة والسّياسيّة علاوة على الصّحافة. وكان النّقد الأشدّ مضاء موجّهًا إلى الأيديولوجيا التّقدّميّة التي كانت سائدة في الوسط الفكريّ. في كتاب **تعاليق على مجتمع الفرجة**، الذي صدر بعد ذلك ببضعة عقود من السّنين، مستخلصًا ما راج من نقد للمجتمع الاستهلاكيّ في تلك الفترة، كان لغي

(146) Situationnisme: حركة أناركيّة دوليّة ظهرت في السّتّينات، لمحاربة البنى الرّاهنة في المجتمع. ومنظّرها هو الفرنسيّ غي ديبور.

ديبور موقفٌ إيكولوجيّ حقيقيّ[147]، فضلًا عن فكر حول «ضدّ الرّاهنيّة» المطلقة.

حين يكون كلّ شيء مدعاة إلى الخشية، ينبغي ألّا يُخشى أيّ شيء. إذا كانت كلّ المخاوف ملمّة بالمرء، فينبغي ألّا يخاف أيًّا منها. ثمّة سرّ خلف الفرجة المطلقة توجد في عمق الأشياء وسوف تثير تفتيت تلك الفرجة. ذلك هو نوع الأفكار الهدّامة التي ستعمّ عددًا من المجتمعات السّرّيّة التي يكون الانخراط فيها قطاعيًّا، قطاع «التّجانس النّخبويّ».

قبائل ما بعد الحداثة، اجتماع أذواق أو أصحاب، عودة التّآخي القروسطيّ، والجمعيّات السّياسيّة السّرّيّة اليونانيّة القديمة، كلّ ذلك التّجلّي لرغبة الأخوّة، بسرّيّة في البداية، ثمّ برصانة، وأخيرًا معلَنة بوضوح، يمثّل ردّ فعل على الخوف وسوف يولّد تدريجيًّا مقاومة معمّمة للأوليغارشيا الإعلاميّة السّياسيّة.

لاحظت أنّ ما بين كلّ مرحلتين ثلاثة قرون أو أربعة، نستشعر خلالها، في جوّ انحدار، ما هو آيل إلى النّهاية، واللّحظة التي نتمتم فيها بما هو بصدد الولادة. ذلك الاستشعار وتلك التّمتمة هما ما

---

(147) Guy Debord, Commentaires sur la société du spectacle, Paris, Gérard Lebovici, 1988

انظر كتابي Le Temps des tribus (1988) 4è édition, Paris, Éd. de la Table ronde, 2019

عن ثيمات سعادة العيش والتّمتّع والإنفاق والجانب الملعون، انظر

Fabio La Rocca, La Ville dans tous ses états, Paris, CNRS Éditions, 2013, et Philippe Jordon, La vie improductive : Georges Bataille et l'hétérologie sociologique. Montpellier, Presses Universitaires de la Méditerranée, 2010. (المؤلّف).

يجري في المجتمع شبه الرّسميّ المعاصر. ولكن ينبغي أن نعرف أنّ «الكنز المخفيّ» لكلّ مجتمع قادم يوجَد هنا.

في السّياق نفسه، أنجز أستاذي جيلبير دوران تحليلًا رائعًا لما يسميّه **هومو لاتوموس**[148]، الإنسان المستتر، حارس ذاكرة التّقاليد العريقة[149]، ذلك الإنسان المستتر هو أيضًا حارس القوّة الشّعبيّة، وبوصفه ذاك يؤمّن على مرّ الأزمان ديمومة الجنس البشريّ وآثاره، وهذا صنف أساس من عمل دوران، ويتعلّق بـ «بنية أنثروبولوجيّة». أمّا أنا فأقول إنّه نموذج سلفيّ تحوّل إلى «نمط جديد» معاصر. ذلك هو التّجذّر الدّيناميكيّ.

بالرّجوع إلى عادات الماسونيّة التّقليديّة، يذكّر بصيغة معروفة لديها، وفي الأقلّ كرمز مختزل، VITRIOL [150].

إنّ الرّبط بين العمق و«الإصلاح» هو الذي يسمح بخلق إنسان جديد ومجتمع متجدّد. كلمة المُصلَحة، اسم مفعول، تدلّ على أمر مقضيّ. والإصلاح هو الخطّ الأحمر لكلّ الانتفاضات. الإصلاح يذكّر بأنّ السّيادة الوحيدة هي للدّيموس، للشّعب، الذي هو أساس الإيتوس المدنيّ. إيثيقا تستند إلى الأحاسيس والمشاعر

---

(148) باللّاتينيّة في الأصل Homo latomus

(149) Gilbert Durant, Science de l'homme et tradition, Paris, Ed. Sirac/ Tête de feuille, 1975, p. 139

انظر أيضًا M. Maffesoli, Le Trésor caché, Lettre ouverte aux francs-maçons et à quelques autres, Paris, Léo Scheer, 2015. (المؤلّف).

(150) الأحرف الأولى من Visita Interiora Terrae Rectificando Invenies Occultum Lapidem بمعنى «زُرْ باطنَ الأرض المُصلَحة تكتشف الحجر المخفيّ»، ولكنّ تلك الأحرف مجتمعة Vitriol تعني حمض الكبريتيك المركّز.

والأهواء المشتركة، وهو ما يضع حدًّا للمثاليّة الدّيمقراطيّة الحديثة ويؤسّس مثاليّة جماعيّة ما بعد حداثيّة.

في التّقليد اليهوديّ القديم، «اليوبيل» معناه إعادة توزيع الخيرات بانتظام. وما يحدث الآن من غليان شعبيّ هو نوع من «اليوبيل». تجديد للممتلكات الرّوحانيّة والثّقافيّة والصّوفيّة للحدّ من هيمنة الممتلكات المادّيّة. إنّه «عَود إلى المبدأ» بعبارة القدّيس توما الأكويني، إلى مبدأ الأشياء. هذا العَود الميتاسياسيّ لا يعود أدراجه، بل يمضي قُدمًا إلى مسقط رأسه، أي بإصغاء أفضل إلى ما هو مولديّ بالأساس. خطوة إلى المَدَبّ، في وجه من الوجوه.

إنّه «مسار أنثروبولوجيّ» موقف هادئ في النّهاية، يذكّر من يمكن تسميتهم، في سخرية، «بالخائفين المخوِّفين»، بطفوح النّموذج التّقدّميّ الذي يكاد، وهو في نهاية المطاف، لا يوجد إلّا عن طريق إصدار تعليمات وأوامر وإكراهات شتّى من شأنها أن تؤمّن أو تطمئن التكنوبيروقراطيّة السّائدة. رفض خورنة الوجود، الذي لا يزال محتشمًا، يذكّر بأنّ الوعي الباطنيّ الجمعيّ يعتقد أنّ الحياة بلا خطر ليست حياة، وهو ما يتجلّى كلازمة في عدّة مظاهرات تذكّر بأنّ الخوف من الموت لا يحول دون الموت، ولكنّه يمنع المرء من الحياة!

هذا التّمرّد متفشٍّ في صفوف الأجيال الشّابّة، كما ذكّرت في أغلب الأوقات. لا يأخذ شكل الاحتجاج كما كان الشّأن في السّتّينات، بل شكل انفصال، وانشقاق يتبدّى بأوجه متعدّدة، كامنة أو متفجّرة. والاحتجاج السّياسيّ، خاصّة، لا يزال في حقل السّلطة، يدعمها

بطريقة مفارقة ليعدّ استبدال الأجيال داخل نفس النّخبة، ونفس الطّبقة. و«الووكيّة» كما أوضحتُ هي الشّكل المعاصر لاحتجاج يثمّن ما تزعم أنّها تدينه.

إنّ التّمرّد ما بعد الحداثيّ بكلّ بساطة هو تعبير عن مخيال جديد في طور المخاض، أي أحلام تروم فرض نفسها بلا منازع. فلطالما احترست السّلطة القائمة من أحلام الشّباب، لأنّها تتحوّل دائمًا إلى واقع، فهم الطّليعة، أي إرهاصات ثورة قادمة. لا ننسى أن الأحلام جزء لا يتجزّأ من البنية الأسطوريّة، فهي الأسس اللّامرئيّة لكلّ مجتمع. بيت لشكسبير يلخّص ذلك: **نحن من نفس نسيج الأحلام**[151] (بروسبيرو، الفصل 4، المشهد 1).

هي أحلام صغيرة متتالية، وحتّى أحلام يقظة دون تبعات، ترسم شيئًا فشيئًا مخيالًا بديلًا عن المخيال المتحجّر بفعل تخوّف معمّم يسعى إلى الدّوام. والتّاريخ يبيّن ذلك بجلاء، حيث تخضع المراحل الوسيطة إلى مظاهر فزع مختلفة: خوف من الذّئب، والطّاعون والجدريّ والفيروسات النّفسيّة المعاصرة.

لنفكّر أيضًا في هذا الجيل الذي ربّيناه على الخوف من البطالة، والذي تنصّل الآن بكيفيّة ما، على الأقلّ في جانب منه، ممّا أسماه كارل ماركس «قيمة العمل». أصحاب المؤسّسات الصّغرى بخاصّة ما عادوا يستطيعون تشغيل حرفيّين شبّان، وإيلافهم. ربّما لأنّ ظروف العمل في بعض القطاعات، وخاصّة التّوزيع الشّامل، أشبه باستعباد حديث (لا وجود لجدول أوقات قارّ، أجرة لا

(151) بالإنجليزيّة في الأصل We are such stuff as dream are made on

تتطوّر، رؤساء صغار أفظاظ، مناخ هستيريا تجاريّة في مقرّ العمل). ولكنّ غياب اعتراف مجموعة العمل بوجه عامٍّ هي التي تولّد تلك الخيبة. العمل المحصور في «قيمة العمل» لم يعد يؤدّي دور الوثاق الاجتماعيّ.

غياب الأحلام والمخيال الإبداعيّ يُنتج نوعًا من التوتّر العامّ الذي ينعكس في شجارات بين عصابات من مختلف الأحياء، وفي «الرّوديو المدينيّ»، وفي بعض التّجمّعات مثل **ريف بارتي** التي تؤدّي بوجه ما دور تنفيس اجتماعيّ.

إنّ مختلف أنواع الهياج، جهمًا كان أم مرحًا، هي علامات، كما هي الحال دومًا، عن انطلاقة جديدة. هذه الانطلاقة نحو أفق لم تتحدّد أبعاده بعد ليس بفعل أعمال نقابيّة أو سياسيّة؛ فالتّنصّل السّياسيّ اليوم أمر مشهود، وإن لم تحلّله أو تتناوله الصّحافة المموّلة، ذلك أنّ مختلف وسائل الإعلام، أيًّا ما تكن، لم يعد يقرؤها إلّا ما اتُّفِق على تسميتهم بـ «كبار السّنّ»، فالثّورة تدمدم في المواقع الاجتماعيّة. وليس جزافًا أنّ السّلطة القائمة أنشأت «لجنة تيودول» لأجل تحليل (في الواقع لأجل مراقبة) «فلك التّآمريّة» التي تعبّر عن مواقفها عبر الإنترنت (تويتر، إنستغرام، إلخ.).

هذه العبارة، «لجنة تيودول»، التي ندين بها لشارل دي غول، تبيّن بكيفيّة ساخرة بطلان اللّجان التي تضيّع وقتها في الهذر الإداريّ دون علاقة حقيقيّة بالحياة الواقعيّة. دواوين ومكاتب سوداء، وهي الآن لجان «سرّيّة للغاية» أو مكاتب استشارات مدفوعة الأجور السّخيّة، تُعدّ دائمًا استنتاجات يتجاوزها الزّمن حتّى قبل وضعها

موضع التّطبيق. في نفس السّياق، تلك اللّجان هي تعبير عن «تنكّر مضحك» عامّ، تنكّر نخبة بمعزل تامّ عن الأوضاع، تحاول أن تقنّع خواءها بتنبّؤات مزعومة عن مستقبل غير ثابت بالمرّة.

الأمر مختلف مع حزم ثورات تتبدّى في المواقع الاجتماعيّة التي هي سبب ومسبّب لقبليّة المجتمع، فالثّقافة السّيبرانيّة هي الشّكل المكتمل لـ «زمن القبائل». من الصّعب علينا، خاصّة في فرنسا، أن نقدّر أهمّيّة «نشاط النّت» ذاك، الخاصّ بالثّقافة السّيبرانيّة الجارية، لأنّها ببساطة تنأى عن العمودّية التي تميّز السّلطة والمعرفة القائمتين. ورغم ذلك فهي تعبّر عن التّململ الحاليّ لثقافة جديدة في طور المخاض.

في الأفقيّة تفرض تلك الشّبكات اختفاء الثّورات الباطنيّة ضدّ الفروض المجرّدة للسّلطة العموديّة. «الإنسان المستتر» المعاصر حاضر هنا! والقبائل المختلفة التي يشترك معها ترمّق القيم الجديدة التي سوف تهيكل مجتمع الغد. صحيح أنّ تلك القيم فوضويّة ولكنّ القانونيّ القادم موجود هنا، في طور المخاض. هنا تتشكّل، لأجل الأفضل أو الأسوأ، مقاومة الاستبداد الصّحّيّ وسياسة حفظ الصّحّة الرّاكضة التي يحاول «الخائفون والمخوِّفون» في السّلطة فرضَها.

صحيح أنّ هذه المقاومة لمفازع اللّحظة الموجودة في المواقع الاجتماعيّة ذات منحى شبابيّ، ولكنّ تبعاتها تنحو إلى التّعميم، والشّرائح العمريّة التي هي بمنجى منها قليلة، فهي وباء حقيقيّ: ونادرون من لم تصبهم «عدوى» الخلافات ذات المستوى الفكريّ

الرّفيع، حيث تنطق العقول الحرّة والعلماء غير المتشّيعين للدّوكسا العالمة المهيمنة.

هو وباء لا يستهان به يقلب القناعات التي يحاولون فرضها، سواء من جهة الأمن الصّحّيّ أم من جهة الأفكار العامّة الجيوسياسيّة وسواهما من عمليّات إخضاع الرّأي العامّ. ووسائل الإعلام تزداد وعيًا بذلك، وقد بدأت تصدر باحتشام معاينات لا تناسب السّرديّة الرّسميّة الجارية منذ ثلاث سنوات. كذلك شأن التّكنوبيروقراطيّة التي تعدّل هي أيضًا الفرمانات المفروضة حتّى تلك اللّحظة.

ومن المهمّ أن نرى هل ستجرؤ التّكنوبيروقراطيّة، بعد أن اتّبعت بمذلّة المطالب السّياسيّة لنموذج صحّيّ بأيدي «الصّيدلة الكبرى»، على الاعتراف بأنّها أخطأت كلّيًّا أو جزئيًا. ولو عدنا إلى بعض القضايا القديمة، ولا سيّما الدّم الملوَّث، لرأينا كيف أنّ المؤسّسات المكلّفة بالتّصدّي للتّطوّر الرّأسماليّ للشّركات الصّيدلانيّة العملاقة لم تجد الشّجاعة والفطنة لمواجهة اللّوبيات التي تدعمها.

فعندما نبّه لوك مونتانييه[152] مصالح الصّحّة حول احتمال تلوّث الدّم المنقول إلى المرضى وأوصى بتحمية الموادّ الدّمويّة، أجابته الوزارة بأنّه ينبغي أوّلًا إجراء دراسات تثبت عدم ضرر تلك الطّريقة. وكانت تلك الدّراسات قد أجريت في إنجلترا والدّانمارك و«سمح» الأجل المفروض للمعهد الوطنيّ لنقل الدّم بـ«تصريف» المخزونات، وتسبّب ذلك في موت الآلاف. الموظّفون هم الذين

(152) Luc Montagnier (1932-2022): عالم بيولوجيا وفيروسات، حاز جائزة نوبل للفيزيولوجيا عام 2008.

حوكموا، أمّا السّاسة فقد قرّر القضاء، كما قال وزير الصّحّة في تلك الفترة، بأنّهم «مسؤولون ولكن ليسوا مذنبين». العجيب، حين نستعيد قضيّة الدّم الملوّث، أنّ نفس ردود الفعل الامتثاليّة والاستعلاء هما اللّذان قادا السّياسيّين والموظّفين السّامين إلى الشّكّ، وحتّى عدم الإصغاء إلى ما يقوله الخبراء الأحرار في أحكامهم.

ماذا ينبغي أن نستخلص من كلّ ذلك، عدا أنّ فكرة سيادة الشّعب لا يمكن بعد اليوم الاستهانة بها تمامًا؟ لنذكّر بأنّ نسيان تلك السّيادة هو الذي يولّد الثّورة عاجلًا أم آجلًا، لأنّ الإعداد لها يتمّ عبر سلسلة من تمرّدات متفاوتة الأهمّيّة، وتؤول من خلال ترسّب بطيء إلى اتّهام جوهريّ لنخبة متردّية إن قليلًا أو كثيرًا. وهذا أمر معروف: فـ«تنقّل النّخب» (انظر باريتو) لا مفرّ منه.

الشّعب يحيا (أو يعود إلى الحياة) بـ«نشاط النّت» ما بعد الحداثة. ولتوضيح ذلك بطريقة مجازيّة نوعًا ما، وبالاستشهاد بصيغة دالّة من روما القديمة، نقول **مجلس الشّيوخ والشّعب**[153] هذا الشّعار الذي يستعيد قوّة جديدة. مجلس الشّيوخ والشّعب. اتّحاد أساس يشمل جملة المواطنين. ولا ترى انشقاقات الدّهماء العديدة النّور إلّا حين لا يجد الشّعب نفسَه في من يُفترض أنّهم يمثّلوه.

عندئذ يغادر المواطنون المدينة ليعبّروا عن اعتراضهم على الشّرفاء الرّومان. الانشقاق أو المغادرة المعاصرة هي الامتناع المتزايد عن

(153) SPQR: الأحرف الأولى من Senatus populusque romanus وهي قولة صارت شعار الجمهوريّة ثمّ الإمبراطوريّة الرّومانيّة.

التّصويت، وكذلك التّسرّب المدرسي (أكثر من 10 ٪ من الشّبّان يغادرون المدرسة دون شهادة أو تكوين)، وعدم استقرار الشّبّان في سوق الشّغل، ورفضهم الإكراه والتسلّط والأعمال المتكرّرة بآليّة. وهي أيضًا الانحرافات المتزايدة، وانشقاق مختلف «الزّعران» الذين لا يرضون بتسلّط «أنذال علية القوم» الماسكين بشتّى السّلطات الإعلاميّة والسّياسيّة. كذلك «الآراء العلميّة» التي تسوّغ القرارات السّياسيّة، فهي في جملتها مسوّغات قبليّة لاغية.

هذا الانشقاق عن الخوف المبرمج يدفعني إلى أن أرى فيه تعبيرًا عن تمييز كلاسيكيّ أتى به روايي كولار[154]، وأخذه عنه أوغست كونت ثمّ شارل مورّا[155] بين «البلد الحقيقيّ والبلد الشّرعيّ». إذ يصادف أن يكون البلد الشّرعيّ منفصلًا تمامًا عن البلد الحقيقيّ. وهذا غالبًا ما يحدث، لأنّنا واعون، وإن قلنا ذلك بطريقة ساخرة نوعًا ما، بأنّ ثمّة حقيقتين متلازمتين، الأولى أنّ السّيادة تكمن في الشّعب والثّانية أنّه ينبغي ألّا يمارسها أبدًا.

هذا التّمييز المكيافيليّ هو خاصّيّة النّظام الفاسد، لكونه يريد الاحتفاظ بالسّلطة لأجل السّلطة، دون أن يهتمّ بالقوّة الشّعبيّة التي هي مبرّرها الأساس. تمييز مضرّ إذن، يستغلّ مختلف المخاوف ليجزّئ المجتمع، ويثير أحقادًا عديدة، ويحطّ من شأن مبدأ الصّالح المشترك نفسه، وما ذلك في النّهاية سوى هدف استراتيجيّة الخوف.

---

(154) Pierre-Paul Royer-Collard (1763-1845): رجل سياسيّ وأكاديميّ وفيلسوف فرنسيّ.

(155) Charles Maurras (1868-1952): كاتب وشاعر وصحافيّ وسياسيّ فرنسيّ.

غير أنّ السّيادة الشّعبيّة تستعيد بانتظام انبعاثًا لا يُنكَر. من بين الأمثلة التّاريخيّة العديدة، أذكر أنّ جاك لوغوف أكّد كيف أنّ لويس التّاسع (القّديس لويس) وأمّه بلانكا القشتاليّة، توصّلا إلى استثارة مساندة الشّعب ضدّ البارونات القروسطيّين، الذين كانوا يستعدّون للاحتجاج وحتّى التّمرّد على سلطة الملك الشّابّ. ويبيّن لوغوف أنّ الرّأي العامّ الفرنسيّ بدأ هكذا[156].

عن طريق المقالات النّقديّة والأغاني، مكتوبة أو شفويّة، كان الشّعراء المغنّون ومدوّنو الأخبار وسواهم من المغتابين يخيّرون الاتّحاد بين الشّعب والملك على البارونات. تلك الثّقافة الشّعبيّة هي التي تنطق هذه الأيّام عبر المواقع الاجتماعيّة. وبذلك يغيّر الخوف موقعه. فالمقاومة تنظّم صفوفها، في المستتر والسّرّيّ والخفيّ من الحياة اليوميّة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(156) Jacques Le Goff, Saint Louis, Paris, Gallimard, 1996. (المؤلّف).

6

التّقاليد

جيّد للإنسان أن يحمل النّير في صباه[157].

سفر مراثي إرميا، 3، 27

بإيجاز، يمكن أن نقول إنّ التّخوّف المطلق ناجم عن جهل بالقيم الرّوحانيّة. ومنه حدثت ردّة فعل، سرّيّة مرّة أخرى، تجاه الحضارة الحديثة. ردّة فعل غايتها ببساطة خلاص الرّوح. بخلاف مذهب التّطوّر المتفائل الذي بلغ ذروته في الأيديولوجيا التّقدّميّة، يجدر بنا التّذكير بأنّ الميزة الأساسيّة للتّقدّميّة و«الفلسفة التّقدّميّة» هي عودة، لجوء؟ إلى جذور التّقاليد. ومن هنا جاءت عبارتي الطّباقيّة عن «التّجذّر الديناميكيّ»، وهو ما يؤدّي إلى وضع ثقافة الرّوح في مواجهة الحضارة المادّيّة.

التّمرّدات المعنيّة التي يُنتظر أن تتزايد تعني في عمقها، لا في المسرح الإعلاميّ، أنّ عمليّة تطهير إيثيقيّ بصدد التجسّد، تطهير يأخذ في الحسبان «تقاليد رجال الدّين» ويشكّل بالتّالي بداية

(157) باللّاتينيّة في الأصل Bonus est viro, cum portavit jugum ad adolescentia sua

طوباويّة باطنيّة. وهذا يحتاج إلى أن نحسن التّفكير في الميتاسياسة الجارية كتوحيد للتّصوّف والعقلانيّة، وذلك هو المسعى الأساس لشارل بيغي، الذي تظلّ أعماله إلى اليوم معينًا لا ينضب.

يجدر تجاوز الحواريّة العقيمة نوعًا ما بين التّقدّميّة والمحافظة، فذلك ما يقود إلى تأكيد أهمّيّة التّقاليد. التوافق معها هو الذي يسمح بتجاوز الخوف وإسكات «المخوِّفين»، تلك الطّبقة التي تستغلّ انشغال البال، الذي هو بنية أنثروبولوجيّة، لترسيخ منطق هيمنتهم، كي يتمّوا إخضاع الشّعب.

ولكن، كما قلت، توجد لدى الشّعب قوّة سحريّة، تشكلّ الفضيلة الأساس لكلّ حياة في المجتمع. ليست فضيلة فاقدة للحيويّة، وإنّما الفضيلة بالمعنى اللّاتيني virtus التي يمكن ترجمتها بـ «مروءة»، أي ما يؤكّد الشّجاعة وحتّى الكبرياء والشّدّة بخاصّة. وكما لاحظ القدّيس توما الأكويني «عندما نمتلك فضيلة، فإنّ الأعمال التي توصي بها لن تكلّف همًّا بل تصبح مثار إعجاب. إنّها علامة العادة (habitus) يقول الفيلسوف (**إيثيقا**، II، 3)؛ إنّها المتعة التي تنتابنا خلال الأعمال[158]». أعتبر أنّ تلك «المروءة» أساس الحكمة الشّعبيّة، فهي تستند، فيما وراء المطالبات العقلانيّة، إلى المعرفة الحدسيّة الملحّة والخصيبة. في مقابل الذّكاء المفهوميّ، المنغلق على نفسه، ينبغي جعل الحدس طريقة للوصول إلى الواقع، طريقة للوصول إلى المطلق، أي إلى تمام الكائن الفرديّ والجماعيّ، لأنّ «في

(158) Saint Thomas D'Aquin, Somme théologique. Traité des passions, Iè, IIè, art. 3. (المؤلّف).

المطلق نعيش ونتحرّك ونكون» كما يقول برغسون.

لم يعد المقصود الاكتفاء بالاستئثار بالحقوق، وهو الموقف المعتاد في العمل السّياسيّ والنّقابيّ منذ القرن الثّامن عشر، وإنّما السّعي إلى الانسجام قدر الإمكان مع الواجبات والفروض الخاصّة بالطّبيعة البشريّة، وهو ما يجعل قبول السّلطة المستنيرة المتولّدة عن الذّاكرة العريقة للتّاريخ الإنسانيّ، تلك السّلطة التي تنمّي العيش المشترك الأساس أي المجتمع برمّته، مقدَّمًا على الرّوح الفردانيّة للكوجيتو الدّيكارتيّ.

هذا اللّجوء إلى التّقاليد، بالتّوافق مع الفروض الطّبيعيّة لجعل الخوف طقسًا، يتمثّل في الهروب من الكلام المهيّج (pathos) الإعلاميّ المطلق أو التّياتروقراطيّة السّياسيّة، وعدم أخذهما بعين الاعتبار، لأجل تحقيق غوص روحانيّ في الحياة الواقعيّة التي يتوحّد فيها بسهولة الرّوح والفكر، الذّهنيّ والجسديّ، العقل والحسيّ.

يمكن أن نضرب مثلًا على ذلك «الهروب»، هروب بعض الأشخاص المصابين كما يقال اليوم باضطرابات نفسيّة، خطيرة في الغالب، أولئك الذين يحدثون قطيعة مع الواقع. في كتاب صغير عظيم الفائدة، يروي عالم التّحليل النّفسيّ جان فورتوس[159] تجربته، أثناء الأزمة الصّحّيّة والحجر وحظر التّجوّل وغيرها من الإكراهات، مع عدد من المرضى كانوا يعانون في الوقت نفسه من اضطرابات نفسيّة ومشاكل اجتماعيّة حادّة. ويبيّن كيف تمّ أثناء

(159) Jean Furtos, Pandémie et biopouvoir : la nouvelle précarité contemporaine, Paris, Éd. de la Rue d'Ulm, 2021. (المؤلّف).

الحجر جعل الحياة «حياة عارية» كما قال ميشيل فوكو، أي المحافظة بأيّ ثمن على الحياة البيولوجيّة على حساب الحياة الرّوحانيّة، العلائقيّة، إلخ.

والحال أنّ المصابين بأمراض عقليّة هم الذين تحمّلوا ذلك التّردّي أكثر من سواهم. لم يشتكوا من كونهم لا يستطيعون الخروج، ولم يخافوا الخروج حين صار ذلك ممكنًا، وكأنّهم يعلمون، علمًا ناجمًا عن استكشافهم الأوجه الأكثر ظلمة في الطّبيعة الإنسانيّة، أنّ المغامرة بحياتهم العارية ليست بالغة الخطورة في نهاية الأمر! ولعلّ أولئك الأشخاص هم الذين يعاملهم نظامنا الصّحّيّ ونظامنا الاجتماعيّ كأسوأ ما يكون، ذلك أنّ وضعَ مستشفيات الطّبّ النّفسيّ ومجملِ جهاز العلاج شبه الطّبّيّ تالفٌ بشكل فظيع، وليس لأولئك المرضى انتظار أيّ شيء منذ زمن بعيد، من دولة تزعم أنّها حامية وتطالب النّاس بالتّخلّي عن العلاقات الاجتماعيّة «لحماية المستشفى». وهكذا فالمجانين، كما هي الحال في الغالب، هم الذين يعيدوننا إلى الرّشاد!

ومن ثَمّ لا توجد في تلك الحكمة الشّعبيّة وفي المعرفة المعبّرة عنها تأكيدات قاطعة، وهي خاصّيّة «المرويّات المرجعيّة الكبرى» (جان فرنسوا ليوتار) التي شكّلت المعرفة الحديثة. تلك المنظومات كالماركسيّة والفرويديّة والوظيفيّة[160] دغمائيّةٌ إلى حدّ بعيد، ولكنّها ترجّح الاحترازات والحدود والنّسبويّة، وكلّ ما يقوم على التّسامح، الذي لا نكف عن القول إنّه «فضيلة» الشّعب الجوهريّة.

(160) Fonctionnalisme: أحد تيّارت الفكر السّوسيولوجيّ والأنثروبولوجي يحاول فهم الظّواهر الاجتماعيّة من خلال تحديد الوظائف التي تؤديها في كلّ ما ترتبط به.

وكما يقول العوامّ: «لا بدّ من كلّ شيء لصنع عالَم».

الحدّ أو التّحديد هو الخاصّيّة الأساسيّة للمدينة. وفي روما القديمة، كان الإله ترمينوس[161] يرمز إلى ما تتشكّل المدينة بفضله، فهو إذ يضع حدًّا بالنّسبة إلى المدن الأخرى المجاورة، يصنع الكينونة. استعارة صائبة تؤكّد ميزة «الحدّ» وأهمّيّته. ذلك أنّه يحدّ، ولكنّه يضع فارقًا بين الحقل المحدود الذي ينتج القمح وبين الصّحراء اللّامحدودة أو البراح القاحلين.

ثمّة إذن في الفروض والحدود والواجبات التي يقبلها الوعي الجمعيّ موقف استرضائيّ بأتّم معنى الكلمة، أي أنّ ذلك القبول عمل يرمي إلى جعل السّلطة الأخلاقيّة للقوّة الشّعبيّة مناسبة. فيما وراء المواطن السّياسيّ، كسبب ومسبّب للحضارة الحديثة، نشهد انبعاث مواطن الفكر الذي يعرف كيف ينخرط في فيزياء روحانيّة ويوفّق بين ترقيمات فلك وأوبرا موزارت وصفحة من الكتاب المقدّس.

ذلك التّوفيق يعبّر جيّدًا عن كلّيّة الكائن الذي لم يعد يرتكز على «الفصل»[162] الهيغليّ الماركسيّ أو «القطع»[163] الفرويديّ. وبذلك ينوب عن أيديولوجيا التّقدّم المركّز على الفرد المُذَرّى كونٌ من الشّعائر والمخاييل المشتركة: إعادة سحر حقيقيّ إلى العالم، يقوم على إنسان الجماعة. الإيثيقا المتولّدة عن مجتمع في طور المخاض لا يمكن

(161) Terminus: في الميثولوجيا الرّومانيّة هو الإله الحارس للحدود والأصْواء.
(162) بالألمانيّة في الأصل Aufhebung
(163) بالألمانيّة في الأصل Spaltung

أن تكون إلّا إيثيقا تراجيديا، أي إيثيقا الموافقة على امتلاء اللّحظة، مشفوعة بالقبول الواعي بالفروض والواجبات، أي القبول بما هو، بما هو كائن «هنا» ويشكّل الطّبيعة الإنسانيّة.

إنّ هذا القبول بتراجيديّة الوجود، والمصير الذي يعبّر عنها، هو الذي يسمح بعيش الخوف يوميًّا وتجنّب ذلك الخطر الأساس أي التّخويف، كما كان الشّأن في القرون الوسطى، حيث كان الفرسان يلعبون مع الموت، بجعل ذلك اللّعب أساسًا لوجود أفضل. قد تبرز في ما بعد الحداثةِ النّاشئةِ فروسيّةٌ بديلة (المواقع الاجتماعيّة تعبير عنها) تكون بطلةَ الثّورات الجارية والقادمة.

في مديح رائع للفروسيّة، يذكّر شيسترتون أنّنا نتحدّث عن «الفروسيّة» للاحتفاء بحياة عيشت بامتلاء[164]. من ناحيتي، أعتبر أنّ الحيويّة، إذ توصّلت إلى فرض نفسها على حفظ الصّحّة وتأمين الوجود وبعض ضرورات الحياة الاجتماعيّة، هي تعبير بليغ عن فروسيّة معاصرة، تعيد الصّلة بالجذور التّقليديّة مع البحث المبدئيّ للإنسانيّة. إنّه بحث معاصر عن «الكأس المقدّسة».

ثمّ إنّه ينبغي أن نلاحظ كيف أنّ الإحالة إلى القرون الوسطى، سواء من طرف «خبراء التّلفزيون العِلمويّين» أو من طرف الشّعب، تأخذ ألوانًا مختلفة. فهذا طبيب كلى يتحدّث في مجال لا يعرفه، أي علم الأمراض المعدية، ولا يستحي أن يصف لعلاج تعفّن خطير فيتامين د والزّنك وفيتامين ج، وهو ما يعدّ ظلاميّة قروسطيّة.

---

(164) Gilbert Keith Chesterton, L'Homme qu'on appelle le Christ, Nouvelles éditions latines, 1947, p. 20 (المؤلّف).

أولئك «الخبراء»، المتمسّكون بـ«التّقدّم» والعِلمويّة، عاجزون عن تثمين المعرفة القروسطيّة، وذكاء الفلاسفة وعلماء اللّاهوت والمهندسين المعماريّين والحجّارين، ولكنّهم عاجزون أيضًا عن الحماس الشّعبيّ، الذي كان مصدر الكنائس والأديرة. وكم كانت تلك الفترة من التّاريخ شعبيّة، رغم أنّها قليلة الدّرس في البرامج المدرسيّة. ثمّة ولع قروسطيّ سواء في ترميم القصور، أو ألعاب الكوسبلاي[165]، أو البحث عن الكنوز، أو الوصفات الطّبّيّة، أو الاهتمام بعدد من الشّخصيّات التّاريخيّة لتلك الفترة، يعكس هذا المخيال ما بعد الحداثيّ، المتمسّك بالملموس، والعمل الحرفيّ، واللّقاءات الشّعبيّة، والشّعائر الدّينيّة والاحتفاليّة...

تلك الروح الفروسيّة المعاصرة تسعى إلى المشاركة في معجزة الحياة، التي تعبّر عن حالها في تمرّد جوفيّ يُخطّط لنظام وكرامة روح جديدين. ومن المهمّ أن نلاحظ نفورًا، في طريق التّعميم، من التّلفزيون والرّاديو والصّحف المموَّلة، خاصّة لدى الأجيال الشّابّة. فعلى شاشات أخرى، شاشات الثّقافة السّيبرانيّة، وشاشات المواقع الاجتماعيّة تستقي تلك الأجيال أخبارًا متعدّدة الأطراف، حمّالة للتّبادل، والتّشارك وخصوصًا الجدل[166].

في تلك الأخبار البديلة نرى شبيبة خلّاقة، لا تحتجّ بل تنخرط

---

(165) Cosplay أو Costumade: ألعاب ترفيهيّة يتقمّص خلالها النّاس أدوار وهيئات شخصيّات معروفة.

(166) انظر Aurélien Fouillet, L'empire ludique: Comment le monde devient (enfin) un jeu. Éd. François Bourin, 2014

انظر أيضًا Playtime. Comment le jeu transforme le monde ? Éd. Les Pérégrines, 2022 (المؤلّف).

عمدًا ضدّ النّموذج الاقتصاديّ المهيمن. نكتفي بمثال واحد من بين ألف، مهندسو «مدرسة عليا»، أغروباريتيك[167]، يدعون رفاقهم إلى تحويل وجهتهم خارج المنظومة الرّسميّة، وعدم المشاركة في الأضرار الاجتماعيّة والبيئيّة التي تسبّبها للمجتمع. هذه الدّعوة إلى «التّخلّي» شوهدت في بضع ساعات مئات الملايين من المرّات وانتشرت انتشارًا واسعًا في المواقع الاجتماعيّة البديلة.

نجد ريح العصيان تلك خلال توزيع دبلومات البوليتكنيك، وحتّى في المدرسة العليا للعلوم السّياسيّة وفي مختلف معاهد التّجارة. وهذا مدعاة إلى الانتباه لأنّه ليس مجرّد عمل طلّابيّ طارئ، بل هو ناجم عن ظاهرة عميقة: عمل تلك الأقلّيّات النّشيطة لا يعدم تأثيرًا على الأغلبيّة الصّامتة لمسيّري المستقبل، الذين سوف يتصوّرون بشكل مغاير عملهم في الدّواليب الاقتصاديّة للشّركات التي سيعملون فيها. عدد من رؤساء المؤسّسات الذين أمكن لي التّحاور معهم واعون بالتغيّر الجاري للقيم المجتمعيّة.

ممّا يشدّ الانتباه أنّ تلك الدّعوة إلى التّخلّي تستخدم دون وعي تامّ أفكارًا نموذجيّة، تلك التي أسمّيها «حساسيّة الفلسفة البيئيّة»، فهي ليست إيكولوجيّة فقط، لكونها مفرطة في السّياسة، بل من تلك الأفكار الكبرى التي لا بداية لها، لأنّها طالما وُجدت في اللّاوعي الجمعيّ[168]. ذاكرة عريقة، كما لاحظ فانسان دو ليرانس[169] في

---

(167) AgroParisTech: مدرسة عليا تابعة لوزارة الفلاحة والسّيادة الغذائيّة في فرنسا.

(168) انظر M. Maffesoli, Écosophie, Paris, Éd. du Cerf, 2017 (المؤلّف).

(169) Vincent de Lérins: راهب وكاتب كنسيّ من جنوب بلاد الغال في القرن

«مفكّرته»: **ما تمّ اعتقاده في كلّ مكان، دائمًا، ومن طرف الجميع!**

ضدّ تلك الحقائق اللّازمنيّة، وضدّ حيويّة الأجيال الشّابّة وروحهم الإبداعيّة، يشحذ **البومرز** المنحدرون إلى الشّيخوخة، أولئك الذين خرجوا للاحتجاج في السّتينات، آخر أسلحتهم. لا ننسى أنّ أولئك «الخائفين المخوّفين» هم المبشّرون الأساسيّون بإعلانات السّلطة حول الجوائح الحاليّة، والأوامر الحربيّة ومختلف الدّعوات إلى الاستسلام لتأمين مجتمع «حديث» في حالة انحلال، أي للحفاظ عليه. دافعهم الأوّل، النّاتج عن التّقدّميّة، هو الخوف من التّقاليد.

هذا الخوف، الذي سوف يتحوّل إلى تخويف معمّم، يمكن أن نجد جذوره، وفي الأقلّ تجلّيه، في رواية جان بول سارتر الشّهيرة **الغثيان**. لنذكّر بأنّ رؤية «جذر شجرة الكستناء» هي التي تولّد لدى الرّاوي إحساسًا بالضّيق، إحساسًا بالقرف يبلغ أوجه في حكمة فلسفيّة: «الوجود ليس هو الضّرورة». ذلك الجذر يوصف بكونه «كتلة سوداء كثيرة العقد، خشنة كلّها».

دون أن نمضي أبعد من هذا، نقول إنّ الارتياب من ذلك الجذر يرمز إلى الارتياب العامّ من جذر الكائن نفسه. وليس غريبًا أنّ سارتر، في سياق هذا الخوف، سوف يملي في مسرحيّته **خلف أبواب مغلقة** هذه الحكمة الشّهيرة: «الجحيم هي الآخرون». إنّ مثل هذا الخوف من الجذور، أي ممّا يؤسّس العلاقة مع «الآخرين»، هو الذي

الخامس، توفيّ حوالي 445-450. أشهر مؤلّفاته Commonitorium (مفكِّرة) ووقّعه باسم مستعار «بيريغرينو».

يمثّل الخيط الأحمر لجانب هامّ من التّقاليد الفكريّة والسّياسيّة والصّحافيّة الحديثة. في الواقع، ما يهمّهم ليس الحياة بل «العدم».

ولكي نبقى في السّياق الرّوائيّ، ولكن بسعة مغايرة، يمكن أن نحيل على الرّواية الرّؤيويّة لهرمان هيسه التي أسلفنا ذكرها **لعبة الكريات الزّجاجيّة**، حيث نجد وصفًا لإقرار «عهد صفحة المنوّعات» التي تجهد لنسيان الذّاكرة، وإنكار أهمّيّة التّقاليد. تلك المواقف تؤدّي عندئذ إلى «استنقاص فظيع للحقيقة» أو «تدمير آثار الماضي». في فقرات عديدة، يذكّر الكاتب بأهمّيّة الجذور، فعندما يؤكّد أنّ «تلك القرية، ذلك الوطن، تلك المجموعة البشريّة تحت إمرة الأمّ، تعطيه كلّ ما يمكن أن يتلقّاه إنسان من شعبه ودولته: أرض ملآنة بألف جذر، في تشابكها ليفة حيث له نصيب في كلّ شيء».

بخلاف ذلك «التّشابك» يتحدّث الكاتب بسخرية دقيقة عن تعدّد اللّقاءات الصّحافيّة والمحاضرات العامّة، وحتّى عن كتب لأساتذة جامعيّين أجلّاء حول مواضيع لا يملكون فيها أيّ أهليّة، كالأزمات الماليّة، وموانع العزوبة، والحروب، والجيوسياسة، إلخ.، لقاءات تهيمن عليها ثرثرة ودّيّة عديمة الفائدة.

قلت بخصوص هذا الكتاب، الذي صدر عام 1943، إنّه رؤيويّ بمعنى أنّه يمكن تطبيقه بالضّبط على المَكْننة المشؤومة للحياة المعاصرة، ذات الانحدار الأخلاقيّ العميق المشترك والفساد البالغ للوظيفة التّربويّة، وظيفة المدارس والجامعات والأكاديميّات ومختلف المجلّات، والانحطاط الحضاريّ واستحالة نشر ثقافة

جديدة. مناخ انحطاط يستغلّ التّخويف المطلق لحجب التّشاؤم المميت الذي يصطبغ به.

هذا التشّاؤم، العاتم الصّامت، الشّرس أحيانًا، يريد اجتثاث الحاضر من ماضيه، أي من أساطيره ومعتقداته وشتّى الوجوه التي شكّلت أسسه الثّقافيّة. إنّه نوع من «الهاراكيري» الشّبق، الذي يخفي إن قليلًا أو كثيرًا الانحطاط الجاري تحت حلية راحة الضّمير، وذلك هو الموقف المعتاد لكلّ «ذوي النّفوس الطّيّبة».

تقويض التّماثيل في أماكن مختلفة يندرج في سياق نكران التّقاليد. ودون أن نحكم على تلك الأعمال، علينا أن نعترف بأنّ مناهضة العنصريّة، وهي تُسقط أعلامًا تاريخيّة من قواعد تماثيلها، تساهم في محو معالم الماضي، باسم نظام جديد لا يحتاج إلى جذور. لنذكّرْ بأنّ البروتستانت قاموا بتحطيم تماثيل العذراء والقدّيسين، وأنّ الثّوّار لم يتخلّفوا عن ذلك، ومن المعجزات أن نجت تماثيل كاتدرائيّة نوتردام بباريس من هياج الكومونيّين[170] بفضل طالب شابّ في الصّيدلة، إذ حملها وأخفاها.

حتّى تمثال كولبير[171] في باريس، أمام البرلمان، احتجّت على وجوده وزيرة سابقة باسم المساواة بين الأعراق. دور من الآن؟

---

(170) Communards: نسبة إلى كومونة باريس وهي أهمّ بلدية ثوريّة ما بين 1870 و1871. أدارت باريس لمدّة 72 يومًا، شهدت خلالها العاصمة الفرنسيّة أعمال عنف وتدمير فظيعة.

(171) Jean-Baptiste Colbert (1619-1683): من أهمّ وزراء لويس الرّابع عشر، وهو صاحب «القانون الأسود» الذي حدّد شروط العبوديّة في الإمبراطوريّة الاستعماريّة الفرنسيّة، وجعل الدّين الكاثوليكيّ الرومانيّ إلزاميًّا، وأمر جميع اليهود بالخروج من مستعمرات فرنسا.

جان جوريس عن كلام معادٍ للسّاميّة، فولتير بسبب معاداته للإسلام، جول فيري بسبب دعوته إلى الاستعمار؟ الأسباب كثيرة والنشوة الانفعاليّة هي الوسيلة الأوكد للتّلاعب بجماهير مسكونة بالخوف النّموذجيّ الذي هو نصيبنا المشترك. يمكن التّذكير في هذا الباب بالوظيفة التي أسماها الطّبيب النّفسانيّ الأمريكيّ ليون فيستنغر «التّنافر الإدراكيّ»، ويعني ببساطة التّلاعب بالمعلومات، الحقيقيّة، المتعلّقة بحدث أو واقعة، للتّعويض عن فشل غايةٍ أو تنبّؤ. هذا النّوع من التّورية منتشر في أيّامنا هذه كسائر أشكال الأكاذيب.

غير أنّ هذه «الووكيّة» الرّائجة، على غرار التّنديد بكلّ من يدين تلك الأكاذيب، ينبغي ألّا تنسينا وجود قبائل صغيرة، معزولة في الظّاهر، تروم البقاء وفيّة للفكر، وتستخدم قوّة لا يستهان بحجمها للحفاظ على نواة التّقاليد التي لا يمكن نقضها، وهو ما لا يمكن أن يتمّ من دون نظام وجوديّ يرجّح بقاء فكر أصيل.

عناوين «المنوّعات»، التي أشرت إليها عرَضًا، يتمّ الإعلان عنها بصوت عالٍ. فقط لأنّ «ذلك» يناسب المسرحة التي هي الأصل التّجاريّ للأوليغارشيا الإعلاميّة السّياسيّة. ولكنّنا نعرف أنّ الـ **هومو لاتوموس**، ذلك الإنسان المستتر، المحافظ على القيم الجوهريّة للجنس البشريّ، لا يتخلّف عن الظّهور بانتظام، وأنّ البنى الأنثروبولوجيّة أو النّموذجيّة تستعيد قوّة ومتانة لا يمكن نكرانها. ذلك ما يجري في «المثل الأعلى الجماعيّ» الذي هو في طور

المخاض، حيث يفرض من جديد قوّة مخيال عريق[172].

لا ننسى أنّ ثمّة تاريخًا مخفيًّا، ولكن ليس أقلّ حقيقة، يعبّر خير تعبير عن الأعماق الصّامتة للنّكرات، لأناس عاديّين. أليسوا هم الذين يؤمّنون، على المدى الطّويل، المتانة الحقّ والبنية الأساس لكلّ عيش مشترك؟ لا يمكن أن نلاحظ ذلك إلّا إذا ترفّعنا، وهذه سمة فكر تأمّليّ لا علاقة له بالفكر الحسابيّ الذي يتصدّر الواجهة اليوم في الجدل العامّ. السّبيل الجدليّ للفكر، الذي يحسن استثمار الدّراسة المتعدّدة الأبعاد، الموروثة عن **المناظرة**[173] التي وسمت تأسيس الجامعات، هو وحده الذي يمكن أن يكون مفيدًا إلى حدّ بعيد في هذا العصر من البؤس النّظريّ.

إنّه مسعى تفسيريّ تأويليّ يسمح بالإمساك بالخصائص الجوهريّة للتّجسيد المجتمعيّ، بكلّ ما في المصطلح من معنى، كما صاغه ميرلو بونتي بعبارة «لحم العالم». عالم ملموس، تماميّ[174]، عالم الحياة اليوميّة بكلّ بساطة، أي عالم تسيطر فيه التّوازنات الأساسيّة. نحن بعيدون في هذه العلاقة بالتّقاليد عن **ثقافة الإلغاء**[175] التي يطغى عليها **الهيبريس**[176] والمغالاة، وهي ثقافة ناتجة عن حذلقة فكريّة

---

(172) انظر M. Maffesoli et Hélène Strohl, La faillite des élites: la puissance de l'idéal communautaire, Paris, Éd. du Cerf, 2019. (المؤلّف).

(173) باللّاتينيّة في الأصل disputatio وتعني مناقشة وفق نمط جدليّ، حول موضوع ما بين متحاورين على رؤوس الملأ.

(174) Holistique: أي تهتمّ بالشّيء في شموله.

(175) بالإنجليزيّة في الأصل Cancel culture وهي حركة ظهرت في الولايات المتّحدة وتتمثّل في إدانة أشخاص أو مؤسّسات وحتّى أعمال فنّيّة وأدبيّة وسينمائيّة، بسبب سلوكهم أو مواقفهم أو عنصريّتهم والدّعوة إلى إقصائهم من الفضاء العامّ.

(176) Hybris: مفهوم يونانيّ عن شعور عنيف يثيره الاندفاع والكبرياء ويؤدّي إلى

أعدّها عالم في ما بينه، عالم زواج الأقرباء (من سياسيّين وصحافيّين وخبراء) بين نخبة «خارج الأرض». أرض القوانين الطّبيعيّة، أرض نظام الأشياء.

هذا الانبتات هو الذي يولّد ضياعًا مطلقًا لمعالم الاهتداء، فالشّعب ينسى أنّ المبدأ الأساس الذي ترتكز عليه المجتمعات المتوازنة ليس مساواتيّة متأتّية من فلسفة الأنوار، بل مساواة حقيقيّة داخل الاختلاف. معرفة التّصرّف في مبدأ الاختلاف هي ضمان لحياة اجتماعيّة متوازنة. في كتاب **عن الجهل العارف** يسمّي الكاردينال دي كويس ذلك **تطابق الأضداد**[177]، بمعنى تطابق متوازن لكلّ العناصر المتباينة التي تؤلّف بالضّبط الحياة العاديّة.

في حديثه عن علاقته بكارل شميت، الذي نعرف إضافته إلى معاداة السّاميّة في مطلع ثلاثينات القرن الماضي، يستخدم الفيلسوف اليهوديّ جاكوب توبس في نقاشه مع رجل القانون «الاتّفاق المختلف[178]». لا يمكن أن نعبّر أفضل من هذا عن التّكامل، فالتّطابق هو المعرفة الأوّليّة للمناظرة الفكريّة الأصيلة، والذي كان من أثينا إلى باريس مرورًا بروما إيتوس (وثاق) ديمقراطيّة متينة مطمئنّة حقيقيّة.

ذلك هو المسار الذي أسمّيه هنا تأويليًّا، والذي يؤكّد امتياز باطنيّةٍ

رغبة في الانتقام.

(177) باللّاتينيّة في الأصل coincidentia oppositurum

(178) Jacob Taubes, En divergent accord. A propos de Carl Scmitt, Paris, Payot, 2003

انظر أيضًا Nicolas de Cues, De la docte ignorance (1440), Ed. du Cerf, 2010 et Clément Bosqué, in Revue Littéraire, Paris, Léo Scheer, n° 63, 2016

تدعّم الأسس المتينة لظاهريّة سياسيّة أو اجتماعيّة. يبدو أنّ «عهد صفحة المنوّعات»، في مظاهره المتسلسلة المعمّمة يتناسى ضرورة الباطنيّة، أي الجذور النّموذجيّة لكلّ عيش مشترك. ولكن مثل هذا السّبيل الفكريّ، الذي يعرف كيف يصمد أمام مسرحة اللّحظة، القصيرة، هو الذي يتيح الصّمود في وجه الآثار المنحرفة لتخريب مطلق يستبطن هستيريا بلا اسم، وتشظّ خطير للمجتمع كافّة.

هذا التّشظّي هو اليوم أمر شائع، و«الووكيّة» هي صورته المكتملة، بيد أنّنا نجده في شراسة الجدل السّياسيّ العجيبة، فضلًا عن الشّتائم العنيفة ضدّ ما تسميّه الامتثاليّة «التّآمريّة». في كلّ هذا، يعاد خطر المحرقة وعدم التّسامح ومحاكم التّفتيش وسهولة إلغاء الآخر.

من المضحك، من هذه الزّاوية، أن نلاحظ أنّ عدم التّسامح ذاك مشفوع بالتّثمين المشهود لأيديولوجيا «التّنوّع»، التي يجدر إدماجها في كلّ مجالات الحياة. ذلك القبول بالتّنوّع شكل من التّصنيف السّكونيّ، يقطّع مختلف الممارسات المجتمعيّة إلى ما يماثلها من مجموعات مغلقة، حيث تحظى بعضها بأولويّتها على الأخرى بسبب «معاناتها» الشّديدة، والحال أنّ الحديث عن التّنوع من وجهة نظر ديناميكيّة، هو حديث عن هؤلاء مع أولئك، عن هؤلاء وأولئك، وليس عن هؤلاء أو أولئك. التّنوع ليس فقط السّود والعرب، بل السّود والعرب والآسيويّون والبيض الأوروبّيّون الذين يعيشون معًا في توافق دون أن يَسودّوا أو يَبيضّوا. إقحام التّنوّع «السّكونيّ» بذلك التّعريف هو غاية في التّزييف، إذا علمنا أنّ المقحمين يهمّشون

مباشرة، وفي الأقلّ يُستخدمون كدرجة ثانية. هنا أيضًا نحن في مجتمع فرجة، لا يتورّع عن استغلال الذين يخلقهم كعناصر بديلة، لتأكيد سيطرته، والحال أنّهم ليسوا سوى «مشهِّيات»! لنذكّر من جديد أنّ البديل، منطقيًّا، يفترض فرعين ممكنين لحلّ، وليس حلًّا مضادًّا للآخر!

وبصرف النّظر عن التّرّهات، يجدر بنا أن نعود إلى إرث روحيّ أصيل، وهي المهمّة التي تنهض بها الجماعات السّرّيّة، والأخويّات، والجمعيّات الدّينيّة التي أشرت إليها. ويمكن تلخيص ذلك في كلمة: القبائل المعاصرة، في إطار المواقع الاجتماعيّة، تتعذّر على هيمنة السّلطة.

قبائل، قبليّ. هاتان العبارتان دالّتان قبل «العقد الاجتماعيّ» الشّهير، أساس الحداثة، فهما تذكّران بإرث أكثر منه قِدمًا. إرث عريق ظنّ التّقدّميّ، السّاذج نوعًا ما، أنّ بإمكانه محوه، وإذا هو يستعيد قوّةً وصحّةً لا تُنكَران. عريق! من خلال اشتقاق مشكوك فيه، وإن كان مجازيًّا ودالًّا إلى أبعد حدّ، ذكّر جوزيف دو ميستر بالقرب الموجود في كلمة «سلف» بين «قديم» و«كائن[179]»!

التّجمّعات القبليّة، في هذه الغابات الحجريّة، أي المدن المترامية لمرحلة ما بعد الحداثة، تعيد التّعبير عن رغبة العيش المشترك، فالعلاقة الأوّليّة[180]، هي أساس مثاليّة جماعيّة في طور المخاض، مثاليّة تعوّض خلسة في أكثر من وجه مثاليّةً ديمقراطيّةً فقدت

(179) القرب هنا قد يصحّ في اللّغة الفرنسيّة ancêtre = ancien + être

(180) باللّاتينيّة في الأصل primum relationis

حيويّتها، حتّى وإن بدا ذلك صادمًا.

تلك المثاليّة الجماعيّة لم تعد تنتظم انطلاقًا من «عقد اجتماعيّ» قوميّ في جوهره، بل وفق «ميثاق» تؤدّي داخله الانفعالات والعواطف والمشاعر دورًا لا يُستهان به. ومن عجب أن نلاحظ أنّ عددًا من السّياسيّين وسائر أفراد النّخبة لا ينفكّون عن استعمال مصطلح «ميثاق»، ولكنّهم يكتفون عمومًا بوضع خصائص العقد تحت ذلك المصطلح، بالمعنى الذي ذكّرت به. وبصرف النّظر عن مُزح المجتمع الرّسميّ تلك، أذكّر بأنّ الميثاق القبليّ يعيد بسط أصناف عريقة، كما تدلّ مواضيع التّقاسم والتّبادل والتّضامن ومصطلحات أخرى من نفس الشّاكلة تفوح برائحة الأزمنة القديمة. تلك المصطلحات تذكّر بأنّ ما بعد النّزعة الاقتصاديّة التي لا تزال مهيمنة، تعيد المثاليّة الجماعيّة إلى الوجود قيمًا أكثر قدامة، وعراقة، بالمعنى الذي أسلفت الإشارة إليه.

من المهمّ أن نلاحظ، هنا أيضًا، أنّ الثّقافة السّيبرانيّة تؤدّي دورًا كبيرًا في عودة تلك «التّقاليد القديمة» المؤسِّسة. فهل نفهم غير ذلك دور **التّمويل المشترك**[181]، الذي يحتلّ الصّدارة اليوم في تكاثر بعث المؤسّسات؟ هذا التّمويل، من قبل جماعة إن لم تكن «خفيّة الاسم» فأعضاؤها على الأقلّ ليسوا بالضّرورة فردانيّين، يعيد إلى الذّاكرة أولئك الذين يحملون على كواهلهم على مسافة كيلومترات العوارض المستخدمة في بناء الكاتدرائيّات!

المشاركة، كطريقة أخرى لقول التّقاسم، هي ذروة كلّ المنصّات

(181) بالإنجليزيّة في الأصل crowdfunding.

الرّقميّة المتكاثرة اليوم، والتي تعيد المعنى للقيم التي خلناها مهجورة. وهذا هو أساس «المحلّيّة» الذي لا نملّ من ذكر مضائها. لست ساذجًا بطبيعة الحال، وأعرض أنّ عددًا من تلك المنصّات مثل Airbnb وUber وكلّ التّجارة على النّت، تستولي عليه رأسماليّة متوحّشة على الدّوام. هذا صحيح، ولكنّها تسمح بذلك التّبادل، والتّقاسم غير الرّسميّ. وخلافًا لما يعتقده يسار تقدّميّ، يُعتبر مستخدمو تلك المنصّات العبيد العصريّين، جماعات من شباب «التّنوّع» كما يقال، تتنقّل بين المطاعم ومحطّات «فيليب[182]»، وفي الوقت نفسه هم بناة علاقة مغايرة بالعمل، تمامًا مثل عبيد الاستهلاك الهستيريّ لدى أمازون وغيرها من منصّات البيع على الإنترنت، يمكن أن يتحوّلوا إلى مناضلين مناهضين للاستهلاك، لا يرتادون سوى مواقع بيع وشراء البضائع المستعملة.

أخيرًا، ينبغي أن نلاحظ أيضًا أنّ في تجمّعات «العبيد» الأوبريّة[183] تلك تكمن بذرة الثّورات التي لن تتأخّر عن الإمعان في صدع النّمط الرّأسماليّ المهيمِن. لا ننسى أنّ سبارتاكوس علم رمزيّ خالد.

تلك المنصّات تشجّع التّقاسم في إطار نفس الاقتصاد. قد يكمن العمل المشترك[184] في كلّ مكان، ويساهم بالاعتماد على التّكنولوجيّات الحديثة في ازدهار تلك التّجمّعات الهجينة: أفضية

(182) Vélib: محطّات تأجير الدّرّاجات في باريس.

(183) نسبة إلى شركة أوبر Uber.

(184) بالإنجليزيّة في الأصل Co-working.

عمل مشترك، والعمل عن بعد في مناطق ريفيّة، كأماكن ثالثة تقطع مع ثقافة الدّولة ونشاطها، وهي مبادرات قانونيّة أو تلقائيّة تعيد الحياة إلى المناطق التي هجرتها الصّناعة والتطوّر العصريّين. ومن هنا تأتي أهمّيّة الأرض، التّربة المحلّيّة أو ما تسمّيه مدرسة بالو ألْتو في كاليفورنيا «البروكسيميا[185]»: تَشاركٌ في المكان، تشارك في القيم، تشارك اقتصاديّ، وهو ما يذكّر بالمقولة: «المكان يصنع الصّلة». هذا التّشارك، الذي يربط الأسس القديمة بالتّطوّر التّكنولوجيّ، هو الذي يسمح بتجنّب التّخويف. ومن المفيد أن نلاحظ أنّ هستيريا الخوف لا تصمد أمام هذا التّشارك الأوّليّ الذي لم تعِ الطّبقة الحاكمة آثاره بعد.

النّخبّة الحاكمة، كما أسلفنا، **البومرز** وأخلافهم المباشرة، أزالوا عن العالم سحره. وبالأحرى، ساهموا مساهمة كبيرة في ذلك المنطق التّقدّميّ العقلانيّ الذي يسم خيبة العالم. ومن المفيد أن نلاحظ أنّ الجيل الحاليّ يساهم بالعكس في إعادة السّحر إلى العالم. وقد أسميته **الحنين إلى المقدّس**[186]. لقد تمّت التّضحية بهذا الجيل، وساهمت إجراءات المنع المتعلّقة بالجائحة الحاليّة في مثل تلك التّضحية، وهذا ما بدأ الإقرار به: تصاعد أمراض ناجم عن اختلال المناعة بسبب التّلقيح، إحباط حادّ، اضطرابات نفسانيّة بشتّى الأشكال، والقائمة في هذا المجال لم تُغلَق بعد.

---

(185) Proxémie: مقاربة للعلاقة مع الفضاء المادّيّ صاغها عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي إدوارد هول منذ عام 1963. والمصطلح يعبّر عن مجمل الملاحظات والنّظريّات التي يطرحها الإنسان عن الفضاء بوصفه منتجًا ثقافيًّا مخصوصًا.

(186) M. Maffesoli, La Nostalgie du sacré, Paris, Éd. du Cerf, 2021 (المؤلّف).

نضيف إلى ذلك، بشكل مفارق، الإضرار بذلك «المعلَم القانونيّ» الذي كان يسمّى «الدّيمقراطيّة الصّحّيّة» بل تدميره. في مختلف القوانين، ولا سيّما عام 2002، ثمّة مفاهيم «قبول مستنير»، ولزوم إعلام المرضى بالمخاطر الممكنة للعلاج، ولزوم قبول مؤسّسات الاستشفاء بأن يرافق الأقرباء مرضاهم خصوصًا في أيّامهم الأخيرة، كلّ ذلك تمّ كنسه، كما يقول جان فوتروس[187]، لصالح الحفاظ على «جسد عارٍ»، أي حياة لااجتماعيّة، دون علاقة ولا شعائر مشتركة.

ولكن بخلاف العقلانيّة (المَرَضيّة نوعًا ما) المتسبّبة في إجراءات منع متزايدة من شتّى الأنواع، ما قلته عن أولويّة الباطنيّ يذكّر بأنّ ثمّة نظامًا طبيعيًّا، وربّما «فلسفة بيئيّة»، حكمة البيت المشترك، يستعيد راهنيّة لا تُنكَر. هذا النّظام الطّبيعيّ، في سياق أرسطو أو القدّيس توما الأكويني، «واقعيّ» إلى أبعد مدى لكونه يوحّد ما تمّ تفريقه. ذلك هو «تطابق الأضداد». **العصر الجديد**[188] الكاليفورنيّ يتحدّث عن «التّماميّة»، أي تمام الكائن الفرديّ والكائن الجمعيّ. الحسّيّ والعقلانيّ في ديناميّة بلا نهاية.

تلك «التّماميّة» هي التي يكتشفها الشّعب أو يعيد اكتشافها. ذلك هو «التّعديل» الجاري. والشّبيبة هي النّاقل الأساس. ولكن ما دام استعمال تلك المصطلحات، عن طريق العدوى، أمرًا عاديًّا، فإنّ

---

(187) Jean Foutros, Pandémie et biopouvoir, la nouvelle précarité. (المؤلّف).

(188) New Age: تيّار روحانيّ غربيّ، ظهر في القرن العشرين، ويتميّز بنهج فرديّ وانتقائيّ للرّوحانيّة.

مجمل المجتمع هو الذي يصاب بذلك الوباء، الحقيقيّ، أي العودة إلى التّقاليد، كطريقة وحيدة لتجنّب أو مكافحة استراتيجيّة الخوف التي تروّجها الطّبقة الحاكمة. تقاليد ضاربة في القدم «وُلدت يوم وُلدت الأيّام»، كما يقول جوزيف دو ميستر.

بنفي ذلك أو إنكاره، صارت الحياة الفكريّة، في مرحلة الانحطاط هذه، شبيهة بنبتة منحلّة تبدّد نسغها بغزارة غير مجدية ومسرحةٍ صِرف. حدث الانحلال منذ بضعة عقود من السّنين، ولم يجنّب إذن جذوره. ثمّة عبارة في التّقاليد الهيغليّة الماركسيّة عميقة الدّلالة: «هواء المدينة يجعل المرء حرًّا[189]». وليس أبلغ من هذا لِوصف «فائدة الانبتات». الحرّيّة هي رفض الإبقاء على الطّين في القدمين: رمز الخضوع للعادات والتّقاليد، والشّعائر وغيرها من الموروثات التي تعود بنا إلى غابر الأزمنة.

مثل هذه الأيديولوجيا، أيديولوجيا الحرّيّة، هي أساس التّقدّميّة التي تميّز النّخبة الحديثة. في الوقت الحاليّ، هي تحاول أن تحجبها بإحالات ثابتة على التّربة المحلّيّة، والحياة الرّيفيّة، وغيرهما من أشكال التّموضع، ولكنّها ليست سوى عناصر خطاب لدى وكالات الاتّصال. حسبنا أن نسمع الطّريقة التي تُستخدم بها تلك السّرديّة كي نفهم زيف الكلام، إذ يتبدّى أنّ مستخدميها «منفصلون عن المسألة» إلى حدّ كبير. نحسّ أنّهم لا يعرفون أسس الحياة اليوميّة بكلّ ملموسها. خير مثال طريقتهم في الكلام عن «القدرة الشّرائيّة»، وكأنّها هوس كلّ من ليسوا مثلهم هم الرّاضين

(189) بالألمانيّة في الأصل Stadtluft macht frei

باستهلاك ودخل مريحين. صحيح أنّ جانبًا كبيرًا من الشّعب ينبغي أن يراقب نفقاته عند نهاية الشّهر، ولكن حتّى في بدايته أحيانًا، ويحرم نفسه من نصيب كبير من مختلف أشياء وخدمات الاستهلاك التي تُعرَض عليهم باستمرار. بيد أنّهم يشربون كلّ يوم كأسًا في الحانة برفقة أصدقائهم، ويعرفون كيف يعثرون على مختلف الموارد المحلّيّة ليأكلوا خضراوات جيّدة أو لحمًا جيّدًا، ويحتفلون، ولهم أصدقاء، وعلاقات غراميّة، وعائلات، وخبرتهم بالحياة لا تنحصر في مشترياتهم الممكنة أو المكبوتة.

إنّ العقلانيّة الحديثة، في مختلف تجلّياتها السّياسيّة والصّحافيّة، ترتكز على الحسم انطلاقًا من إرهاصات مطروحة بصفة سبقيّة، والحال أنّ تجربة الحياة اليوميّة غير ذلك تمامًا. هي بالأساس تجريبيّة، يعني استنباطيّة، وذلك هو جوهر العلائقيّة التي تميّز الحياة الاجتماعيّة. لا أدري، وإن كان ذلك غير مهمّ، هل لعبارة تجربة هذا الاشتقاق، فبعضهم يرى أنّها تقترب من العبارة الفرنسيّة القديمة espérir، أن تهلك ذاتُك لتحيا في آخر. أن تكون انطلاقًا من العلاقة.

بالتّغافل عن ذلك، وحتّى بمقاومته، تمّت صياغة التّجريد النّظريّ الحديث، أي «التجرّد» من الأرض في معناه الأدقّ. رفض تلك التّربة العضويّة التي عُرك منها الإنسان. في ضوء ذلك التّجريد تمّ منذ القرن الثّامن عشر ترجيح ضوء العقل على ما اعتُبر ظلًّا خطيرًا، ونُسي أنّ التّجربة اليوميّة تذكّرنا بأنّ «الغسق» (الضّوء والعتمة) هو ما يميّز وجود كلّ فرد.

بنسيان ذلك، وخلط الحرّيّة والإباحة، وتفضيل الحقوق وإهمال الواجب، بدأ اقتلاع المرء من جذوره. باختصار، بنكران ما هو جوهريّ في الطّبيعة الإنسانيّة، أي بإهمال الفروض التي ينبغي أن تخضع لها، بإهمال تلك الالتزامات التي هي الخطّ الأحمر لتقاليد ترتكز على الملمح الثّابت للقيم الأساسيّة التي تنظم الصّالح العامّ.

هذا الصّالح العامّ الذي يؤكّد امتلاكًا مشتركًا بين مختلف أعضاء مجموعة بشريّة. «صالح» يمكن أن يكون عمليًّا، ولكنّه يجد أساسه في الجانب الرّوحانيّ، الدّينيّ الذي يرأس كلّ صلة اجتماعيّة. فالصّالح العامّ، في نظر القدّيس توما الأكويني، هو ميل المجموعة الطّبيعيّ إلى «الصّالح الأكبر» الذي هو الرّبّ، أي أساس كلّ تنظيم اجتماعيّ وسياسيّ[190].

كان من السّهل جدًّا، طيلة كلّ الحداثة، وصف العصر الوسيط بالظّلاميّة، والحال أنّ مرجعيّة الثّبات وعدم المساس ملازمة لمرجعيّة التّمام والكمال. وهي مفاهيم كان جيلبير دوران، عبر «بناه الأنثروبولوجيّة»، وكارل غوستاف يونغ في حديثه عن «النّماذج» وفيلفريدو باريتو في تذكيره بأهمّيّة «البقايا»، قد فصّلوا القول فيها. كلّ الأشياء تذكّر بأنّنا محدودون، أي مقيّدون بالمناخ الذي نوجد فيه، وهو مصداق قول فيكتور هوغو: «والطّائر الأكثر حرّيّة قفصه المناخ».

ليست راديكاليّة ما بعد الحداثة سوى تذكير بالجذور وضرورتها.

---

(190) Saint Thomas d'Aquin, Somme contre les gentils, Paris, Éd. du Cerf, 1993. (المؤلّف).

ثمّة قبول بالضّرورة (anakè) في الفلسفة اليونانيّة أيضًا، التي تذكّر بألّا وجود لحياة إلّا انطلاقًا ممّا يحدّها، ويحدّدها. بكلام أكثر بساطة، المنبع، كنقطة ثابتة، هو الذي يسمح من بعدُ بجريان الوادي. وهو ما يقوله الفيلسوف بطريقته: «المَنشأ هو دائمًا مستقبل[191]». قد يكون الماضي أسطوريًّا، فنتازيًّا، خرافيًّا، إلخ.، ولكنّه كيفيّة محتومة على الحاضر والمستقبل. وهو ما يستوجب أخذه بعين الاعتبار.

وذلك فعلًا ما تقوم به تلك الشّركات الصّغرى التي هي قبائل ما بعد الحداثة، وسواء تدري أم لا، فهي، واعية تمامًا في أغلب الأوقات، بأنّها تغتذي بالسّكولائيّة القروسطيّة والأرسطوطاليّة اليونانيّة. فهي تقيم معها أحلامًا وحتّى أوهامًا، أساطير قديمة على أيّ حال، للعيش ومواجهة الواقع في أشدّ صعوباته. إنّها الحيويّة التي تتمّنع كثيرًا على الامتثاليّة الرسميّة، التي تستهين بالأخلاقيّات السّائدة. فـ«المورالين[192]»، بعبارة نيتشه، ليست نقطة قوّتهم!

ولكن أليست تلك الحيويّة إلّا اعترافًا بالتّراجيديّ السّاعي في الطّبيعة البشريّة؟ التّراجيديّ ببساطة هو الإحساس بالتّناهي، السّير نحو الموت؛ حتّى العدوانيّة والعنف هما من العناصر المكوّنة واللّازمة للحيوان الإنسانيّ. فلسفة الحياة تذكّر بأنّ في قبول تلك الحيوانيّة تجنُّبًا لمساوئ البهيميّة.

---

(191) Martin Heidegger, Acheminements vers la parole, Paris, Gallimard, 1981, p. 95

انظر أيضًا كتابي M. Maffesoli, Le Rythme de la vie, Paris, Ed. de la Table Ronde, 2004. (المؤلّف).

(192) Moraline: عبارة ابتدعها نيتشه عن الأخلاق المسيحيّة.

وذلك ما غفل عنه القرن العشرون، فهو بإبرازه القيم العليا للأنوار، لم يستطع تجنّب مذابح الحربين العالميّتين، بل إنّه أثارها، دون أن ننسى معسكرات الاعتقال والإبادة التي اقترفتها التّوتاليتاريّة النّازيّة، ومعتقلات الغولاغ وغيرها من أنظمة المراقبة التّوتاليتاريّة الشّيوعيّة المهدِّدة باستمرار، والتي ما زلنا نرى أثرها في الحياة اليوميّة في الصّين، البلد الذي يؤلّف بين خصائص رأسماليّة جامحة وشيوعيّة لم تقع مراجعتها البتّة.

يمكن أن نذكّر أيضًا بأنّ «التّوتاليتاريّة النّاعمة» في المجتمعات الدّيمقراطيّة ذات طبيعة مماثلة: فهي إذ تشجّع على «أنظمة الأمتعة» أو تثمّن «مجتمع الاستهلاك» كما أحسن تحليله صديقي الرّاحل جان بودريار، وتحاول بقبضتها حجب خاصّيّتها الأساس، تقود إلى حياة بلا نوعيّة يغلب عليها القلق وتناول العقاقير النّفسيّة.

هذا المسار يبلغ أوجه في الجائحة النّفسيّة المعاصرة، التي أدّى نكران التّناهي فيها إلى تخويف مطلق، حيث الحرص على الهناء الكمّيّ والاستهلاكيّ والاقتصاديّ والماديّ يؤدّي إلى نسيان «حياة أفضل»، حياة نوعيّة ذات جوهر روحانيّ. إنّ هذا الانزلاق من النّوعيّ إلى الكمّيّ هو الذي يؤدّي إلى الخوف من الآخر، لأنّ استراتيجيّة الخوف، التي يتميّز بها الاستبداد الصّحّيّ وتعقيم الحياة الاجتماعيّة، تقود إلى العزل والتّشظية، وسياسة الحجر الصّحّيّ هي صورتها المطلقة. سواء تعلّق الأمر بتلك الحلقة المضحكة من حجر شامل، مع السّماح بالخروج لساعة وفي الجيب ترخيص ذاتيّ، أو الحلقة الأكثر خبثًا التي ترمي بالأساس إلى منع التّجمّعات، عن

طريق حظر التّجوّل وتوصيات أخرى لإقامة مآدب تفصل الأجيال بعضهم عن بعض! ومن عجب ألّا أحد من أصحاب تلك الإجراءات أو التّوصيات العبثيّة أدرك صيغتها السّخيفة.

ليس من عادة «صفحة المنوّعات» الفكريّة التّمييز بين الدّراميّ والتّراجيديّ، إذ غالبًا ما يُستخدم أحدهما بدلًا عن الآخر. فالدّراميّ، الحديث في جوهره، يرى أنّ الشّرّ يمكن تجاوزه، إنّه الفصل (Aufhebung) الهيغليّ الماركسيّ. يمكن تجاوز الخلل والمرض والموت. جانب من تراجيديا التّصرّف في الأزمة الصّحّيّة متأتّ بالتّأكيد من ذلك التّصوّر التّقدّميّ (الذي يؤمن إيمانًا راسخًا بالعلم والتّقنية) للعلاج. الأمر لا يتعلّق بمرافقة المريض بتقديم ما يحتاج إليه من العلاج المتوفّر مع قبوله ودون تكالب، وإنّما بمصارعة المرض، بشراسة في الغالب، وقسوة أحيانًا (مثل علاج المرضى بالسّرطان). الشّخص الحيّ، وهو منذور للموت، يُنسى في سبيل صراع لا ينتهي ضدّ المرض. والمعالجون الحديثون يتخلّون عن الأشخاص، حين يفشل علمهم وتقنيتهم في تأجيل الأجل النّهائيّ.

الأنسنة الانتقاليّة المعاصرة، بمفهومها عن «الإنسان المضاعَف» هي الشّكل المكتمل لذلك التّصوّر «الدّراميّ» للعالم، أي الجدليّة (طَريحة، نَقيضة، نتيجة)، وتعبيره المنهجيّ. في هذا التّصوّر، يُصدر معاصرونا أحكامهم على الأزمنة والحضارات الماضية، العصور الوسطي، العصر القديم الإغريقيّ والغالي الرّومانيّ، وحتى على الشّعوب الإفريقيّة والآسيويّة التي يقال عنها «بدائيّة»، وكأنّ التّقدّم

المادّيّ وحده هو علامة الحياة الأفضل. ينبغي الإحالة على كتاب جان سيرفييه، **الإنسان واللّامرئيّ** الذي يبيّن لنا كيف أنّ مرحلتنا، الأولى التي لم تعد تخصّص جهدًا لتثقيف الرّوح، فرديًّا أم جماعيًّا، هي في الواقع همجيّة[193]!

أما التّراجيديّ فهو خلاف ذلك تمامًا، فهو في جوهره شكّاك، أي ليس له حلّ ولا قرار. ونحن نشهد اليوم عودة ذلك التّراجيديّ. يجدر «التّعامل» مع المرض والتّناهي والموت، أي قبول المصير وقسوته بشجاعة وهدوء. لا يعني ذلك نكران الدّاء، بل ترويضه وتطقيسه وعلاج الدّاء بالدّاء في وجه ما، فذلك أساس الحكمة الشّعبيّة، التي تجهلها في ما يبدو الأوليغارشيا الإعلاميّة السّياسيّة التي تريد فرض «خير» مجرّد عن طريق الخوف. فالحياة وكذلك الموت صارا متغيّرات إحصائيّة نسرد أعدادها كلّ يوم، في دراماتورجيا مثيرة للشّفقة خالية من الانفعال والإحساس.

يبدو أنّ القبول بالمصير، بغضّ النّظر عن كونه جوهر الحياة الاجتماعيّة، يدعّم قبول الآخرين. بالتّكيّف مع ذلك الآخر المطلق الذي هو الفناء، نتكيّف أيضًا مع الآخرين الذين نعيش معهم. مؤاكلة، تلاقٍ، مؤاخاة... العبارات المستعملة لا تهمّ. تقاسم مصير، محتوم، يقوّي الرّباط الاجتماعيّ والصّالح العامّ الذي ينتج عنه، أي **حبّ الفرد مصيرَه**[194]، حبّه قدرَه، كقاعدة أساسيّة لكلّ

---

(193) Jean Servier, L'Homme et l'invisible (1964), Paris, Éd. du Rocher, 1994. (المؤلّف).

(194) باللّاتينيّة في الأصل Amour fati وقد ارتبط استخدامها باسم نيتشه.

عيش مشترك. نهضة هذه البنية هي التي تلوح اليوم.

7

النّهضة

مكتبة
t.me/soramnqraa

أعتقد أنّ يوم زوال المرحلة الحاليّة الفاصلة بين عهدين ليس بعيدًا، حيث سيعلو عامل جديد «أفقيّ»، ليس حزبًا جديدًا أو طائفة جديدة، وإنّما تيّار عامّ لا يُقاوَم، موجة قعر روحانيّة شبيهة بالنّصرانيّة الأولى وبالنّهضة. قد تكون نهاية المرحلة التي بدأت مع غاليليو ونيوتن... (نهاية) عصر التّعريفات العلميّة، والقياسات الكمّيّة، والقيم النّفعيّة، وهيمنة العقل على الرّوح.

أرثر كوستلر

لنعِدْ خلط الأوراق. الخوف، كما أسلفت، نموذجيّ، أي أنّه ملازم لأحشاء البشريّة، كامن فيها. ومن ثَمّ وجب معرفة التّصرّف فيه. في كتابين أثيرين **الخوف في الغرب** و**الخطيئة والخوف**[195]، بيّن جان دولومو كيف أنّ تلك المسألة، لدى الطّبقة الحاكمة، يمكن أن تؤول إلى شكل من الرّصانة، أو تثير بالعكس هستيريا وانعدام أمن مطلقين. في هذه الحالة، لن يكون الانشقاق والتّخريب بعيدين أبدًا.

(195) Jean Delumeau, La Peur en Occident, XIVè –XVIIIè siècles, Paris, Fayard, 1978 et Le Péché et la peur, Paris, Fayard, 1983. (المؤلّف).

الشّعور بالذّنب وكره العالم هما النّتيجة المنطقيّة لتفاقم الخوف. تفتيشيّة اليوم تطارد «التّآمريّة» باستعمال مصطلحات «الووكيّة»، «اليقظة» المزعومة تسمح بإضفاء الشّرعيّة على أشكال القمع التي تتميّز بها سياسة حفظ الصّحّة السّائدة، وسط مسرحة خاصّة بمجتمع الفرجة المعمَّمة.

كلّ ذلك يجري وسط مناخ التّدهور السّائد الذي يتّسم بها الانحطاط الذي نعيش فيه. انحطاط الحداثة وقيمها الجوهريّة ما زالت نخبة مفلسة تلوّح بها بوصفها غير قابلة للتّجاوز، بدعوى أنّ الفرد المنغلق على ذاته، يحتاج إلى العزلة أو الحجْر. كلّ ذلك، بطبيعة الحال، باسم خرافة تقدّميّة، كديانة حقيقيّة للمرحلة، تسوّغ مختلف التّعاليم لإكليروس عَلمانيّ.

ضدّ تلك القيم تحديدًا يتبدّى تمرّد الشّعب عبر منح قوّة جديدة للتّقاليد السّحيقة، تلك التي تمثّل، بعراقة، التّربة التي سوف ينمو فيها العيش المشترك الأساس. ذلك التّمرّد التّقليديّ هو الذي يمكن بطريقة لا تزال سرّيّة، أن يقود إلى تلك النّهضة، التي تخلف حتمًا كلّ انحطاط. ولكن في سرّيّة. ففي اللّحظة السّعيدة للغروب تنطلق الحكمة وتتفتّح، كما بيّن نيتشه.

وجورج زيمل، كما ذكّرت أكثر من مرّة، استفاد من كلّ ذلك ليؤكّد أهمّيّة ما أسماه مجازيًّا «الملك المستتر» لمرحلة ما[196]. هي استعارة جميلة لكونها تحمل على التنبّه إلى الخاصّيّة الأساسيّة لمرحلة ما، مثل الكائن في التّقليد اليونانيّ، والرّبّ في العصر الوسيط، أو

(196) Georg Simmel, Sociologie, Paris, PUF, 1981, p. 42. (المؤلّف).

الطّبيعة في عصر النّهضة. الأمر هنا يتعلّق بجعل المرء متنبّها إلى الدّافع اللّاواعي الذي يحرّك أعماق الحياة الشّعبيّة، انطلاقًا من إرث كامن، كطريقة أخرى لقول ثقافة التّأسيس. انطلاقًا من ذلك الإرث يتمّ تصحيح العَلمانيّة التي بلغت، بعد فلسفة الأنوار، ذروتها في القرن التّاسع عشر، الذي كان عصر تقدّم واعد، قادر على كلّ شيء، بما في ذلك تدمير كوكب الأرض!

غير أنّ «التّصحيح» بمعناه الباطنيّ هو نفسه الذي يعطي من جديد معنى للتّرابط، أي إقامة علاقة مع الطّبيعة (فلسفة البيئة)، ومع أفراد المجموعة البشريّة الآخرين، وحتّى مع الآخر اللّامرئيّ (المقدّس). وفي ذلك عودة «نظام» داخليّ، سرّيّ نوعًا ما، يذكّر بأهمّيّة قوّة شعبيّة وضرورتها، إلى جانب مؤسّسة رسميّة، قوّة غير رسميّة ومؤسّساتيّة في الوقت ذاته. فعلماء الدّين يذكّرون بوجود كنيسة «يوحنّا» تؤمّن الجذور الرّوحانيّة لكنيسة «بطرس» الرّسميّة.

طائر مينرفا، عاشق الحكمة، «لا يحلّق إلّا عند الغروب»، كما يقول هيغل. بالتّفكير في تلك الاستعارة، لاحظت بعض العقول المثقّفة أنّ التّصحيح الصّائب يتمّ لاحقًا. ومن ثَمّ يجب العودة إلى «أبجديّة بدائيّة»، وثقافة جوهريّة، وغريزة أوّليّه بوصفها أساس كلّ حياة اجتماعيّة. ولكن يجدر بنا أيضًا أن نتذكّر أنّ ذلك «التّصحيح» يعقب دائمًا مرحلة «قياميّة» هي كما نعلم «شكل من الوحي».

أذكّر بعض المعترضين بهذه الأسطر من «رؤيا القدّيس يوحنّا»: «وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى

قَدْ مَضَتْ». (رؤيا 21 : 4). رؤيا يوحنّا بيّنة لكونها تركّز على رجعة المسيح، بعد اكتمال كلّ شيء، فهي في نظر الديّانة المسيحيّة القدوم النّهائيّ للمسيح عند نهاية الأزمنة، وفي رأي الفلسفة اليونانيّة، كما هو الشّأن عند سقراط، حضور الأفكار في الأشياء.

ذلك «الحضور» يعبّر عن الانسجام الموجود بين قانون الأشياء الذي لا يُمسّ والحرّيّة المتعلّقة بالفكرة، بين الخضوع للطّبيعة وسلطة التّقاليد. وهذا هو التّوازن الخالص الموجود بين الحواسّ والرّوح. هنا أيضًا، يتعلّق الأمر بالضّوء والعتمة في كلّ حياة جديرة بهذا الاسم، بما يجبر على الخروج من الدّائرة الضّيّقة لجمهوريّة الآداب، المنغلقة في قناعاتها الدّغمائيّة، ويُرغم على الدّخول في جمهوريّة الرّوح، جمهوريّة القيم الرّوحانيّة الجاريّة. بذلك يمكن أن نكون ذوي رؤية.

بهذه الكيفيّة يمكن أن نفهم نيتشه: «ينبغي خلال فترةٍ ما أن نسمّي ظلامًا ما كان نورًا: ذلك هو السّبيل الذي ينبغي اتّباعه. لا تحسبوا أنّه يقود إلى بساتين ومراعٍ غنّاء. سوف تجدون بذورًا صغيرة صلبة. إنّها الحقائق[197]».

تلك «المراعي الغنّاء» للامتثاليّة، المرهونة كما نعلم بمنطق «وجوب الكينونة»، أي أنّها لا تهتمّ بما هو كائن (الدّازاين[198] في الفلسفة الألمانيّة) وإنّما بما تحبّ أن يكون، ذلك أنّ «البذور الصّغيرة»

---

(197) Friedrich Nietzsche, Le Voyageur et son ombre (1880), Paris, Denoël, 1979, p. 20 (المؤلّف).

(198) Dasein: الوجود الحاضر أو الوجود المقابل للّاوجود. ويستخدم هايدغر هذا المصطلح للدلالة على كينونة الموجود الإنسانيّ أو كيفيّة وجوده.

الحاملة للحقيقة من الصّعب الاهتداء إليها، ومن العسير تأويلها. ولكنّ ذلك هو السّبيل الفكريّ الذي يسمح باكتشاف أنّ الأنتينوميا هي القلب النّابض للطّبيعة الإنسانيّة. كلّ حياة تنشأ من المتناقضات.

الأنتينوميا هي تناقض بين القوانين، أي بين أنماط الوجود، وهي بنيويّة، ليست أحاديّة البعد بل متعدّدة الأبعاد، وأصحاب العقول الحرّة يعرفون تطويعها والتّصرّف فيها. وهذا ما دفع بعضهم، مثل الفيزيائيّ لوباسكو[199] أو الأنثروبولوجيّ جيلبير دوران إلى الحديث عن «المنطق التّناقضيّ» الذي لا يتعدّى فيه النّقيض النّتيجة، بل يبقى كما هو[200]. وهذا ما أسميته «التّناسق النّزاعيّ».

تلك البنية الأنتينوميّة هي التي تجعلنا نفسهم أنّ حياة بلا مخاطر ليست حياة واقعيّة. بيد أنّ رفض الأنتينوميا المهيمنة في الرّهانات الثّقافيّة الصّغيرة، هو على نقيض ما شكّل الفكرَ الحقيقيّ القادم من الأزمنة الغابرة، وهو ما أجاد كارل شميت تسميته بـ«فكر النّظام المحسوس». في غياب ذلك، ننتج بعض الصّبيانيّات المسلّية، الخالية تمامًا من المعنى. مكتبة سُر مَن قرأ

تلك المسلّيات، كما أسلفت، هي المهيمنة اليوم في مختلف التّجلّيات «الووكيّة» أو لدى أولئك الذين ينتابهم العصيان، هم ببساطة ما يمكن تسميتهم بالبورجوازيّين الصّغار المتعطّشين إلى

---

(199) Stéphane Lupasco (1900-1988): فيلسوف فرنسيّ من أصل رومانيّ، متخصّص في فلسفة العلوم، مبتكر مفهوم المنطق الدّيناميكيّ للمتناقض.

(200) انظر Gilbert Durand, Les Structures anthropologiques de l'imaginaire, Paris, PUF, 1960, p. 469 (المؤلّف).

اختلاجات تحيي قليلًا وجودًا فائق السّطحيَّة. لنذكّر بأنّهم، بوصفهم حائزين «عقد أمان مهني +++» هم الذين يسعون إلى السّفالة كي يُنسونا أنّ لهم وضعًا من أنسب الأوضاع الاجتماعيّة وأفضلها.

لأجل ذلك يندّدون بـ «فلك التّآمريّة»، أي بكلّ الذين لا يستجيبون إلى البعد الأحاديّ ذي الأفق المشؤوم. بياناتهم المبدئيّة لا تمنعهم من التّرويج لِلُبس القناع أو التّصويت للجواز الصّحّيّ، خصوصًا من طرف من له نيابة وطنيّة أو أوروبيّة! باختصار، هم يدعمون الامتثاليّة المهيمنة، ويفتحون بذلك المجال لهستيريا مطلقة في الوقت الحاضر، كتعبير معاصر «للعبوديّة الطّوعيّة»، التي تسِم بانتظام مراحل الانحطاط.

أولئك البورجوازيّون الصّغار، الذين يعانون من قلّة الشّهرة، سوف يسعون إلى مقاومة كلّ أشكال الميز، ولكنّ مقاومتهم، كصورة منحلّة عن الصّراع الطّبقيّ، تندرج ببساطة في التّخويف المعمَّم الذي تعمل الأوليغارشيا الإعلاميّة السّياسيّة على فرضه. من هذه الزّاوية، فـ«الووكيّون» وكلّ من يتعسّف على «فلك التّآمريّة»، هذه العبارة التي يقذفون بها معارضيهم، ليسوا سوى مرتزقة تؤجّرهم السّلطة إن قليلًا أو كثيرًا. بانخراطهم في استراتيجيّة الخوف، ودعمهم للهستيريا التي تولّدها، يتّضح أنّهم في الواقع نفوس بائسة يكنّون اشمئزازًا غريزيًّا «لإرادة العيش» المعقَّدة، التي يمتاز بها الجنس البشريّ.

هذا الجنس، شئنا أم أبينا، نسينا أم تذكّرنا، يخضع للقانون،

القانون الطّبيعيّ. هو مرهون لنظام، نظام الأشياء الذي لا يمكن الاستهانة به أو تجاهله. القانون الطّبيعيّ ونظام الأشياء هما اللّذان يولّدان مبدأ الرّدْف، أي عدم الانفصال عن القاعدة التي تمثّل أساس كلّ نظام اجتماعيّ. نعرف، ولكن غالبًا ما ننسى، أنّ السّيادة في جوهرها تتأتّى من الشّعب.

والمرتزقة المعنيّون، البورجوازيّون الصّغار غير الخاضعين، إذ يعلنون المساواتيّة، لا يفهمون أنّ الحياة بوجه عامّ تقوم على مبدأ التّراتبيّة. فما هو معبد الإنسانيّة، الذي هو مجموعة عضويّة، إن جاز لنا استعمال هذه الاستعارة الدّالّة، إذا لم نعترف بأنّ كلّ حجر لا معنى له إلّا فوق تلك المجموعة؟ أمّا المساواتيّة الظّاهريّة فتتجرّد عن الواقع. وكما يقول المثل القديم «هذا لا يناسب».

بمعنى أدقّ، قناعاتهم وأنماط عيشهم ومطالباتهم تتناسب مع نمط معيّن، هو النّمط الأنجلوساكسونيّ الذي شكّل الحداثة، وهو أنموذج يغلب عليه المذهبان النّفعيّ والاقتصاديّ، أي ما يمكن أن نلخّصه بعبارة مشهورة «الصّائب سياسيًّا». من هذه الزّاوية، هم محتجّون مفيدون («أغبياء مفيدون»؟) يدعمون حياة مجتمعيّة عفا عليها الزّمن تمامًا.

ذلك أنّ القيم الرّوحانيّة والثّقافيّة والدّينيّة، في إطار تعدّد الأقطاب الذي يميّز المرحلة الحاليّة، تتجذّر في نظام الأشياء التي تستعيد راهنيّة عجيبة. إنّها النّهضة الجارية، التي سوف يكون فيها للأنتينوميا، المبدأ التّناقضيّ، والتّشابك، دورٌ لا يُنكَر.

ولا يمكن أن نفهم كلّ ذلك إذا واصلنا استعمال مفاهيم مشيَّأة أو

أفكار مجرّدة أو عامّة تمثّل ضحالة الجدل المزعوم المعاصر. فالنّخبة، بهذا التّصرّف، لم تجعل من نفسها سوى «بوق» دولة تحوّلت إلى «ليفياثان» لا محيد عنه، ولم تعد قادرة على تمثيل فلسفيّ أو سياسيّ أو اجتماعيّ. فهي لم تعد تمثّل أحدًا. والمثل الأعلى الدّيمقراطيّ الذي تدّعي الدّفاع عنه ليس سوى كذبة لا تنطلي على أحد.

لو كان لتلك النّخبة قدر من الثّقافة، لذكّرناها بأنّها أفلاطونيّة ببساطة، بمعنى أنّ المحسوس بالنّسبة إليها، أي الحياة الفعليّة، ليس سوى انعكاسٍ للمعقول، ولكن نخشى ألّا تفهم الإحالة!

سيرورتها «الفكريّة» تتمثّل في اعتبار الذّاكرة، ذاكرة التّقاليد، لا جدوى منها. حسبها أن تتكلّم، في مناقشات كتبٍ حرّرها على عجل صحافيّون، أو حبرها مُسخَّرون لبعض السّاسة لتأكيد الشّهرة، لمدّة وجيزة رغم كلّ شيء، في الزّمن القصير الذي يميّز «عهد صفحة المنوّعات»، والذي يلغيه الزّمن الموالي.

أمّا سبيل الفكر الحقيقيّ فهو غير ذلك تمامًا، إذ لا يتمسّك بأفكار وأبطال من الدّرجة الثّانية، بل يعمل على وصف ما يلاحظ بصرامة. والأنتينوميا ماضية في هذا الباب، وهو ما وصفته مارغريت يورسنار حينما لاحظت بشيء من الفزع أنّ المفكّرين الحقيقيّين هم أولئك الذين «تلقّوا الهبة المرعبة برؤية العالم كما هو، وجهًا لوجه[201]».

---

(201) Marguerite Yourcenar, Essais et mémoire, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1991, p. 855.

انظر أيضًا M. Maffesoli, La Connaissance ordinaire (1985), Paris, Klincksieck, 2007. (المؤلّف).

عدم الاستخلاص، تجريديًّا، بطريقة شبه علميّة، بل وضع استقراء، «معرفة عاديّة» حقيقيّة، انطلاقًا من المعيش؟ عدم البرهنة، بل الكشف، بالرّجوع إلى كلمة قديمة "monstrer"[202] حتّى وإن كان المِسخ حاضرًا هنا، شئنا أم أبينا. «إظهار المسخ» ذاك يحسن إدراج الأنتينوميا وبالتّالي لا يخشى الخوف. بإظهار البشع «التّناقضيّ» يمكن أن نلاطفه برصانة، لأنّ الإظهار يكتفي بإحياء ما أورثته التّقاليد، وهو ما يمثّل الذّاكرة الغريزيّة التي تميّز كلّ مجتمع. غرائز تعرف معرفة مدجَة، يجد فيها الجسد والرّوح نصيبهما، ما هي القوانين الطّبيعيّة، وما هي الفروض التي توصي باتّباعها.

كذلك استهلّت سيمون فايل كتابها **التّجذّر**، الذي يحمل عنوانًا فرعيًّا **تمهيد لإعلان الواجبات تجاه الكائن البشريّ**[203]، إذ تشير بأنّ «مبدأ الفرض يسبق مبدأ الواجب، الذي هو تابع ونسبيّ». حين لاحظت أنّ رجال 1789 لا يعرفون هذا، تركّز كلامها على إظهار أنّ «الفرض وحده يمكن أن يكون لا مشروطًا» وأنّ «الإنسان الذي ينظَر إليه في شخصه ليس له سوى واجبات».

إنّه فرض خالد يستجيب إلى مصير الطّبيعة الإنسانيّة، التي من واجبها الأساس الاحترام. العبارة اللّاتينيّة لكلمة respicere «يَنظر خلفَه»، تُذكّر جيّدًا بما ندين به لمن سبقونا. الاحترام الذي ندين به للطّبيعة، والأرض التي نعيش فيها، ومنتجات التّربة،

---

(202) هكذا كان يكتب فعل montrer بمعنى أظهر، في الفرنسيّة القديمة، وهو قريب من كلمة monstre الحديثة، بمعنى مِسخ، شاذّ الخلقة، قبيح للغاية.

(203) Simone Weil, L'Enracinement, Prélude à une déclaration des devoirs envers l'être humain, Paris, Gallimard, 1949, p. 9. (المؤلّف).

والهندسة المعماريّة النّظيفة، والمحلّيّة التي تطوّق كلّ ذلك، ذلك ما يسمح بالتّمييز بين الجوهريّ والحادث.

ثمّ إنّه من المفيد أن نسمع الشّباب الحاليّ في أحياء الضّواحي أو الشّباب الذين يقلّدونهم في الأحياء الفاخرة، وهم يمعنون في استعمال كلمة «احترام». ربّما للدّلالة على أنّه يوجد، بصرف النّظر عن الفوضى السّائدة، فوضى نظام اقتصاديّ بلا أفق، وسياسة منفصلة تمامًا عن الواقع، نظامٌ أكثر أهمّيّة من جهة مغايرة، نظام العلاقات الاجتماعيّة الأوّليّة. هذا المبدأ العلائقيّ هو سبب الفروض الطّبيعيّة والإنسانيّة ومسبّبها.

كلّ المراحل تستند إلى «روح مبدأ»، أساس وساري المفعول. الرّوح المبدأ للحداثة، التي كان أطرافها الأنوار ثمّ «رجال 1789»، آثروا الحقوق، وإعلان حقوق الإنسان والمواطن هو المثال الأكثر اكتمالًا. يبدو أنّ قبائل ما بعد الحداثة، بصدد «النّظر إلى الخلف»، بطرق شتّى وفي شتّى المجالات: دينيّة، مشتركة بين جماعات، ثقافيّة، روحانيّة، فلسفيّة بيئيّة، إلخ. ومن ثَمّ، فإنّ الرّوح المبدأ للمرحلة لم تعد تتناسب مع أسطورة التّقدّم، بل تزداد حضورًا في «تقدّميّة» تضع في حسبانها أهمّيّة الجذور، وتنهل منها أكثر الدّيناميّات نجاعة.

وفي نقيض احتداد الخوف، يعود قبول الفروض والواجبات إلى الرّشد والحسّ المشترك، اللّذين جهد التّكبّر الفكريّ، على المدى الطّويل، التّقليل من شأنهما، وحتّى إبطالهما تمامًا. ولكنّ الخداع الفكريّ لا يستطيع تعويض الحياة المعيشة الحقّ، فهي واعية بعالم

التّعدّد. والرّهان في النّهضة، والانتفاضات والثّورات ومختلف التمرّدات هو الوعي القبْليّ بانسجام عامّ كونيّ يحاول حجب تشدّق الطّبقة الإكليريكيّة الحاكمة. فأبطال «الفكر الحرّ»، الذين ليس لهم حرّيّة ولا فكر، يسعون إلى معاملة الشّعب كقطيع من الدّوابّ المخصيّة، بالتّلويح بآلات اجتذاب العصافير، والتّبشير بمجتمع ممتاز سوف يأتي في زمن محدّد، يُتجاوَز فيه الدّاء والمرض والتّناهي نهائيًّا. وكلّ ذلك مقابل خضوع الشّعب، الصّبيانيّ نوعًا ما، خضوعًا تامًّا.

ذلك الأمر المتأمِّه[204] المزعوم، هو الذي يزداد إدانة باسم عالم «بدائيّ»، فطريّ في كلّ إنسان: كلّ فرد، «الإنسان الذي بلا خصال» لروبرت موزيل، بمعنى أيًّا ما يكن، لا يني يحسّ «ببقايا» التّقاليد في قلبه وروحه، وهو ما يؤدّي إلى توسيع نمط العيش، سواء أكان ذلك النّمط فرديًّا أم جماعيًّا.

ثمّة عبارة رومانسيّة نوعًا ما لأوغست كونت تعبّر جيّدًا عن ذلك الاتّساع حين يتحدّث عن «الكائن الأكبر». لسنا هنا في وراد تحليلها بدقّة، فتأويلها، كشأن تأويل كلّ آثاره، لا يُمكن الاعتماد عليه[205]. ولكنّ «الكائن الأكبر» في نظره يرمز إلى عبادة الإنسانيّة، ومعرفة «العيش لأجل الآخر». إنّه المجتمع البشريّ في كلّيّته. هنا أيضًا ثمّة «انسجام كونيّ» يقوم بين الطّبيعة نفسها وبين الذين يعيشون فيها

---

(204) Maternage: طريقة لعلاج العُصاب، غايته خلق صلة واقعيّة ورمزيّة بين المصاب والطّبيب تشبه صلة الأمّ بوليدها.

(205) انظر مثلًا Auguste Comte, Calendrier positiviste, postface de Patrick Tacussel, Montpellier, Éd. Fata Morgana, 1993 (المؤلّف).

حاليًّا ومن عاشوا فيها سابقًا.

هذا الاتّساع هو ما أسميته «العالم البدائيّ»، معقل حياة يوميّة ليست ما هي عليه إلّا انطلاقًا من «تجذّر ديناميكيّ»، جذور مخفيّة وتائقة للوجود في الوقت ذاته. إنّها بدهيّة تستحقّ التّذكير: الجذور هي التي تسمح بنموّ أيّ نبتة، نباتيّة كانت أم إنسانيّة. إنّها الجذور التي يسعى المجتمع الرّسميّ، بتوتاليتاريّته النّاعمة، إلى إنكارها. كونيّة، تآمريّة، استهلاك، إلغاء حدود، جنسانيّة واحدة وترّهات من هذا القبيل، تتصدّر الواجهة. وباسم ذلك تقام حملة صحّيّة مفرطة إلى أبعد حدّ ونمط تفكير أحاديّ. ولكن كلّ ذلك بالغ الهشاشة.

ذلك أنّ الفردانيّة الإجباريّة، المحتدّة، والافتراضيّة المطلقة، والخوف الذي يصيب العقليّة العامّة، باختصار، هذه التّوتاليتاريّة الدّوليّة تخالف الحقّ الثّابت للشّعب، الذي لا يمكن أن يضيع. على نقيض الكونيّة التّجريديّة للأنوار، والتّقدّميّة الآليّة، لا نرى بزوغ الإزهار غير المنتظر للقوى العميقة، قوى الكوسموس، والطّبيعة، وما يعبّر عن حساسيّة قوى جهنّميّة يُعدّ ديونيسوس صورتها الرّمزيّة.

ضدّ التّدمير المادّيّ للنّظام الطّبيعيّ، الذي يميّز الحداثة، توجد مقاومة لامرئيّة، في طور المخاض، يُحتمل أن تكون شديدة. إنّها قوّة المقدّس إذ تحدو بما تسمّيه الذّاكرة القديمة الشّخص العاديّ، فهي تذكّر، ضدّ الحقائق النّظريّة، بوجود نظام لا شكّ فيه، هو نظام القوّة الشّعبيّة، التي تُسقط نظريّات **الدّوكسا**. من تلك القوّة يمكن أن

تنبثق نهضة داخليّة أو خفيّة، إذا أحسنّا التّعبير عنها، إذا عرفنا كيف نكثّف في كلمات ومفاهيم واستعارات، أي ما يشعّ في عمق الحياة اليوميّة، مقاومةً رهيبة للنّظام القائم. ثمّة حكمة دالّة لباسكال تقول: «ينبغي أن يكون لك فكرة من الخلف وتحكم على كلّ شيء منه، ولكن بالتّحدّث مثل الشّعب».

«فكر من الخلف» يقرّبنا من الشّعب. ضدّ غشّ الامتثاليّين، هذا ما يمكن أن يسمح لنا بالدّخول في حياة الأشياء، في الحياة اليوميّة، حياة التّجربة المشتركة. حياة العقل السّليم، الذي يعلم أنّ الإيمان والشّكّ، الخير والشّرّ، الخبث والفضيلة مترابط بعضها ببعض. وبعبارة مجازيّة، يكيّف بعضها بعضًا كالشّهيق والزّفير. وذلك ما دفع القدّيس توما الأكويني (**مجمل تيولوجيّ – اليأس**) وكارل بارت[206] إلى الحديث عن «اليأس الواثق».

هذا اليأس الذي عُدّ إيجابيًّا، ذلك ما لا تفهمه زمرة كسالى متبجّحين، لا يدركون معنى الحياة الواقعيّة، فيجهدون تجريديًّا إلى نكران ما يمكن تسميته بـ «حرّية الشّيطان»، أي حضور الشّرّ والخطأ وحتّى الخطيئة في الطّبيعة البشريّة. ذلك النّكران يؤدّي منطقيًّا إلى إقامة توتاليتاريّة طبّيّة اجتماعيّة تزعم تأمين سلامة الجميع!

كلّ ذلك أمر عاديّ لأنّ التّاريخ ليس سوى تتالي ملوك وطغاة ورؤساء... يزعمون أنّهم يطمحون إلى السّلطة لتأمين الصّالح

---

(206) Karl Barth (1886-1968): قسّ مصلح وأستاذ لاهوت سويسريّ. من الشخصيات الكبرى في اللّاهوت المسيحيّ في القرن العشرين، وخاصّة اللّاهوت الجدليّ.

العامّ، والحال أنّهم يحبّون السّلطة لذاتها. وما وضع الأيديولوجيا الأمنيّة في الواجهة إلّا لتغطية تلك الحقيقة.

إنّ الأمر بلبس القناع، الذي مثّل عنصرًا هامًّا في تلك الأيديولوجيا، يقيم الدّليل على غلبة الخداع والفرجة والمسرحة المطلقة. فـ«التّياتروقراطيّة» السّياسيّة، في مسرحتها للتّطوّر الخطّيّ، وضرورة التّقدّم، تريد أن تنسينا أنّ الواقع الاجتماعيّ، بنيويًّا، يرتكز على الازدواجيّة، كلّ فرد مضاعف ومزدوج، أي أنّ الشّخص، في قيده «القبَليّ» (أو المشترك) يندرج في معيار حيّ ومتعدّد، هو معمار تعدّد القيم.

ضدّ «التّوتاليتارية النّاعمة» التي تتميّز بالتّأمين، معمار حقيقيّ متعدّد، هو معمار الازدواجيّة، يعمل بفضل المخيال. بمعنى بسيط: على وشك سرد قصص، حكايات، أساطير، خرافات تضع الشّرّ في مكانه المناسب، ولو كان فقط لأجل محاربته.

منذ القدم، خصّصت الكاثوليكيّة للشّرّ مكانًا لا يُنكر، مع إمكانيّة التّعبير عن النّدم والدّخول في صفاء الطّائفة الكنسيّة، بفضل سرّ التّوبة أو الاعتراف. وفقًا لذلك، ولأنّ الخير المجرّد الكونيّ وحده هو الشّرعيّ، عارض الأنوار النّصرانيّة وتأويلاتها الفقهيّة للخطيئة والغفران، وهو ما دفع كانط إلى القول، بسخرية، بعد أن افتتن بالأنوار، إنّ الفلسفة اللّاهوتيّة كانت «الفانوس السّحريّ لعناكب الدّماغ»!

ولكن انطلاقًا من ذلك الرّفض فُرضت على مدار الحداثة فلسفات ماديّة واقتصاديّة كريهة أدّت إلى نزع محموم للطّابع

الإنسانيّ عن الحياة الاجتماعيّة ما زلنا نعاين آثاره. التّبرجزيّة بأشكالها الرأسماليّة أو الاشتراكيّة، قلّلت من «البنية الكبرى» (الثّقافيّة، الرّوحانيّة، الدّينيّة) قياسًا بـ «بنية تحتيّة» اقتصاديّة لا حدود لها. وهكذا أصبحت كلمات مثل تضخّم، قدرة شرائيّة، دخل، ضريبة، إلخ، زبدة السّرديّة المعاصرة، وأُهمِل ذلك المعيار الرّوحانيّ الذي هو أساس كلّ عيش مشترك. لقد أصاب شيسترتون حين أشار إلى «العبادة الحقيقيّة الذّليلة المتطيّرة الصّوفيّة للمال[207]». عودة الإله مامّون أو ما تسمّيه التّوراة «العجل الذّهبيّ»، بإيثار الثّروة المادّيّة التي يمكن أن ينذر لها المرء حياته، هي ما أدّت إلى تشظّ اجتماعيّ ذي آثار لا تُحصى.

الاقتصاد النّقديّ هو الشّكل النّهائيّ للتّجريد، فهو يحرّر روابط تصلنا بالآخرين، ويعمل كوسيلة تعديل لسلطة مجرّدة ويتناسى أنّ الاقتصاد والسّلطة مرهونتان للقوّة الشّعبيّة وليس العكس. ينبغي ألّا ننسى أنّ ثمّة رابطًا وثيقًا بين الفردانيّة والدّوليّة، لأنّ الصّلابة العضويّة للمجموعة والقبيلة تمّ إلغاؤها تدريجيًّا. نلاحظ أيضًا في هذا الشّأن أنّ وضع الرّأسماليّة في مقابل الشّيوعيّة من وجهة نظر مادّيّة ودَوليّة ليس صائبًا. الثّورة الفرنسيّة، كنموذج للثّورة الرّوسيّة، سارعت بإلغاء كلّ التّجمّعات البلديّة والقطاعيّة: القطاعات المهنيّة، بما فيها الجامعيّة، والأخويّات، دون ذكر الكنيسة

(207) G. K. Chesterton, La Chose. Pourquoi je suis catholique, Paris, Éd. Climats, 2015, p. 15. (المؤلّف).

المستقلّة عن الدّولة؛ كذلك الثّورة الرّوسيّة[208]، التي أعادت إقرار عقوبة الإعدام منذ 1917، وقتلت عددًا من الكهنة والرّهبان الأرثوذكس دون الحديث عن نزع أراضي المزارعين الأثرياء سيّئ الذّكر.

الثّورة الصّينيّة هاجمت، لا سيّما أثناء الثّورة الثّقافيّة، تلك التّجمّعات البشريّة، أي العائلات، وشرّدت الأجيال في شتّى أصقاع الأرض. أمّا المنظّمات التي جمعت الشّباب والنّساء والحزب، أي المنظّمات التّعاضديّة، فلا علاقة لها بالمجموعات البشريّة. كانت تحبس الأفراد معًا في جهاز تتحكّم فيه تمامًا سلطة الدّولة. والأيديولوجيا الدّوليّة، المادّيّة والإنتاجيّة إلى حدّ العنف، هي قاعدة النّمطين الكبيرين للتّنظيم الاجتماعيّ للحداثة، أي الرأسماليّة والشّيوعيّة[209]. هما نمطان من ممارسة سلطة الدّولة على شعب من الأفراد المعزولين، وهو ما أسميته في تلك الفترة «عزلة قطيعيّة».

تلك الفردانيّة وعواقبها الدّولية هما اللّتان تؤدّيان إلى مجتمع منسَّقٍ مؤمَّن مطهَّر يرفض التعدّدية المشتركة وإدارة المجموعات البشريّة للخطر وغياب الأمن الملازمين للوضع البشريّ، أي للشّرّ. وكان كارل شميت قد لاحظ أنّ وحدانيّة الاقتصاد تلك متأتّية من كارل ماركس الذي يعتبر الاقتصاد قاعدة كلّ نشاط فكريّ. وهي ماركسيّة من بقايا القرن التّاسع عشر، أي تجاوزها الزّمن، ولكن

---

(208) انظر François Furet, Le Passé d'une illusion, essai sur l'idée communiste au XXè siècle, Paris, Robert Laffont, 1995. (المؤلّف).

(209) أحيل على كتابي La Violence totalitaire, Paris, Calmann-Lévy, 1972, P. 138-142, (المؤلّف).

مركسة العقول هي التي ظلّت تنعش النّخب الإعلاميّة السّياسيّة، وهو ما جعلهم يؤثِرون قيمًا بالية تمامًا مثل «قيمة العمل» والتّقدّميّة والعقلانيّة وسائر المذاهب اللّادينيّة من نفس القبيل. باسم تلك القيم المزدهرة نوعًا ما في القرن العشرين، نشهد صعود نوع من المجتمعات اقتصاديّ خالص يمثّل منتدى دافوس طرفه الأساس.

غير أنّ عددًا من المؤشّرات يجعلنا ندرك أنّ إلى جانب أسطورة التّقدّم الذي يريد «خورنة» الحياة الاجتماعيّة إلى حدّ الشّطط، توجد أسطورة مضادّة في الثّورات والانتفاضات والتّمرّدات التي تعترض على هيمنة حفظ الصّحّة. أضع في هذه الحركة كلّ الثّورات «غير العنيفة» أيضًا، تلك التي تتبدّى في المواقع الاجتماعيّة، في إطار صحافة تشاركيّة أو مواطنيّة، وتذكّرنا ببطاقات الجماعات الأناركيّة، والمظاهرات، والتّجمّعات الفنّيّة وحتّى مجالس المُؤاكَلة والمُشارَبة، وفي رفض الأوامر حول القناع واللّقاح والخوف.

ثمّ إنّه من المفيد أن نلاحظ أنّ الفنّ يؤازر روح الثّورة تلك. نعرف من التّاريخ، من عصر النّهضة إلى زمن الثّورة السّرياليّة، دون أن ننسى رومانسيّي القرن العشرين، أنّ ثمّة صلة وثيقة بين الفنّ والثّورة، إذا عنينا بهذه العبارة «العودة إلى ما خلنا أنّنا تجاوزناه». وهذا معناه أنّ الفنّ والثّورة يساهمان بنفس الحساسيّة «التّصويريّة»، أي أنّهما لا يحصران الحياة الاجتماعيّة في تصوّر كمّيّ، وأنّهما، تاريخيًّا، يعيدان الأهمّيّة إلى النّوعيّ والحرص على جعل الحياة عملًا فنّيًّا. بطبيعة الحال لا ينبغي حصر الفنّ في بعده الرّسميّ، المؤسّساتيّ، الخاضع للسّلطة، وإنّما رؤية ما فيه من بديل، وحتّى هامشيّ، لا يعدم

أن يستبق شكلًا صوفيًّا ممكنًا.

ذلك الفنّ المنشور على المواقع الاجتماعيّة أو الذي يحاول الصّمود بشجاعة أمام الامتثاليّة الرّسميّة هو، مثل «حصان طروادة»، بلورة للحياة الاجتماعيّة القادمة. هنا أيضًا يمكن أن نسوق أمثلة، ليست في مجملها من الطّرائف: **حشود الفلاش**[210] في «مزيد من الرّقص»، مسارح حرّة متنوّعة، بعيدًا عن القاعة العامّة المموَّلة[211]، وقد كانت التّجمّعات الموسيقيّة التّجاوزيّة خلال الحجر الصّحّيّ الثّاني علامات على حيويّة العيش المشترك. والآن ينبغي الاهتداء إلى ثورة اجتماعيّة جوفيّة ضدّ بيروقراطيّة الدّولة وضدّ الفوضى الحقيقيّة والنّظام الأخلاقيّ الزّائف الذي تريد تلك البيروقراطيّة فرضه.

صحيح أنّ الخمول والجبن يفسّران كيف أنّ عددًا من النّاس يظلّون طوعًا «قاصرين»، في حاجة إلى «أوصياء»، غير أنّ مبدأ الهيمنة ذاك ينبع من البنية التّقنيّة البيروقراطيّة في القرن التّاسع عشر، وقد أوضح ميشيل فوكو ذلك في مجمل أعماله. هذا الحرص على «المراقبة والمعاقبة» الذي يريد العناية بكلّ الحياة الاجتماعيّة يثير قلق

---

(210) بالإنجليزيّة في الأصل Flash mobs: تجمّع مجموعة من الأشخاص في مكان عامّ لأداء عمل ما كالرّقص والتّمثيل خلال وقت وجيز، ثمّ ينفضّ جمعهم.

(211) على سبيل المثال، أذكر مسرح

Jean-Pierre Pelaez, Réflexion sur l'activité théâtrale en France, 1981-2016, pour une renaissance du drame, Paris, Éd. L'Harmattan, 2018

وعن التّجمّعات الموسيقيّة، انظر

Lionel Pourtau, Techno: Voyage au cœur des nouvelles communautés festives, Paris, CNRS Éditions, 2009, et Techno 2 : Une subculture en marge, Paris, CNRS Éditions, 2012 (المؤلّف).

أعداد متزايدة من البشر. **الأخ الأكبر** ما عاد يجدي.

صحيح أنّ وضع أوصياء على مجمل الحياة الاجتماعيّة يؤدّي إلى خنق ما أسميته التّضامن العضويّ الذي تتميّز به المثاليّة المشتركة، ولكنّها حماية مفرطة تقود إمّا إلى الوهْن و«العبوديّة الطّوعيّة»، وإمّا إلى الثّورة والفوضويّة. ومن المفيد أن نلاحظ أنّ مظاهرات مثل ذلك التّأمين على الوجود عديدة. ذانك المظهران، الوهن والفوضويّة، يؤكّدان الملمح «التّناقضيّ» للجنس البشريّ. الاجتماعيّة الآليّة تحمل في بذورها كلّ عناصر التّوتاليتاريّة. في الوقت نفسه، تبرز القوى التي تمنع النّجاح الكامل للمراقبة. الأمر العموديّ بالسّعادة والهناء هو مصدر التّوتاليتاريّة الدّوليّة، أيّا ما تكن أشكالها، ولكنّ غريزة الأمل متجذّرة في الرّوح البشريّة تجذّرًا يجعل الثّورة تنتصر في النّهاية[212].

وهذا متأتّ ببساطة من أنّ الغريزيّ أو الحكمة الشّعبيّة، وكلاهما سواء، يندرجان في المدى الطّويل، مدى «لحظة خالدة»، يتّخذ إيقاعها منفاخًا ألفيًّا. وبفضل ذلك يتوصّل إلى نوع من البرودة، كطريقة أخرى لقول قبول الشّرّ والفناء. الغريزة تجعل من كلّ ذلك طقسًا، والوجبات المشتركة عقب المآتم دليل على ذلك، مثل الحركات والكلمات والأغاني التي تؤكّد أنّ الحداد مشترك، ويدعّم الاجتماعيّة الخاصّة بمجموعة ما، وهو ما يخلق صلة ويدعّم العلاقة

---

(212) انظر M. Maffesoli, La violence totalitaire, p. 91, 98, 165, 257
انظر أيضًا Mario Perniola, L'Aliénation artistique (1972), Paris, Éd. 10-18, 1977 (المؤلّف).

بالآخرين.

وكما يذكّرنا **سفر نشيد الأناشيد** في الكتاب المقدّس «لأَنَّ الْمَحَبَّةَ قَوِيَّةٌ كَالْمَوْتِ». (نش 8: 6). تلك الأنتينوميا تتبدّى بوضوح في الشّعائر المأتميّة، كتعابير عن نظام الأزمنة، متأتّية في الوقت نفسه من معرفة تراكمت على مرّ العصور وقوّة المخيال، مخيال الأساطير والرّموز وسائر الخرافات التي تشكّل ذلك الوثاق أي العالم المثاليّ[213].

تطابق تلك الأشياء المتعارضة هو الذي يتيح «سبيل يقظة» حقيقيًّا، لا علاقة له بتظاهرات «الووك»، الغافلة عن واقع الأشياء. تلك «الصّحوة»، صحوة الانتفاضات، ترتكز على «التّناقضيّ» الفعليّ، كما أوضحت بشأن المفارقات المعيشة يوميًّا، وهي طريقة لتطقيس الخوف، علاوة على تخويف «المخوِّفين».

وهذا يستدعي الوقوف بعيدًا عن السّلطة السّياسيّة، لأجل معاينة أفضل للأسس الرّوحيّة التي تميّز كلّ حياة في المجتمع، أي الاعتراف بما هو فرض (واجب) واعتدال، خاصّة. نظام الأشياء هذا ليس من تحصيل الحاصل، لأنّ السّلطة الطّبّيّة السّياسيّة تعارض ذلك بقوّة، معارضة تثير عواصف مجتمعيّة ليست الانتفاضات الحاليّة والقادمة سوى وجهها الأكثر تأكيدًا.

يمكن أن نوضّح ذلك بطريقة طريفة بكلمات شارلوت روبسبيير حين ثارت على التّهم الموجّهة إلى أخيها ماكسيميليان، وقالت إنّه «في طفولته، كان يتسلّى بقطع رؤوس العصافير حتّى يتعوّد على قطع

(213) Imaginal: العالم المثاليّ الذي يقع بين المحسوس والمعقول.

رؤوس البشر». ولكنّه كان شديد التّعلّق بـ «حمامته الغالية» التي يحميها بانتظام، تمامًا مثل عصفوره، ومن ثَمّ كان له ميل فطريّ إلى الإشفاق على الضّعاف والبائسين، وهو ما جعله يبسط «إشفاقه الطّبيعيّ على كلّ طبقات البشريّة» ومختلف المستضعفين في الأرض[214].

نعرف كيف كان يتصرّف صاحب تلك «النّفس الحنون» داخل لجنة الإنقاذ الوطنيّ، لفرض الخلاص والقيم الأخلاقيّة عبر «إرهاب» ما زال حتّى يومنا هذا يثير الاستنكار المشروع الذي نعرف. بهذا المثال التّاريخيّ من الثّورة الفرنسيّة، التي تُعدّ في نظر بعضهم النّشأة المشروعة لفرنسا «الحقيقيّة»، أؤكّد، بمقصلة أقلّ، أنّ الآداب العامّة تتحسّن، فمن أجل خير الجميع يستعين كلّ أعضاء لجنة الإنقاذ الوطنيّ المعاصرة بأطبّاء من نوع «غِيّوتان»[215] يعمّرون «اللّجان العلميّة»، واللّجان الإيثيقيّة، وغيرها من اللّجان ضدّ التّآمريّة والأخبار الزّائفة لتسويغ الأعمال الخانقة للحرّيّات.

نشوتهم المازوخيّة تحجبها أيديولوجيا الهناء التي يستخدمونها مسوّغًا. إرهاب **الأخ الأكبر** يمكن أن يأخذ أشكالًا ملطّفة إن قليلًا أو كثيرًا، والدّولة البوليسيّة تظلّ كحالها من قبل. لا بدّ من المراقبة دومًا، **هو يرقبكم**، لأجل مضايقة الحياة الخاصّة، بدعوى أنّ الدّولة

---

(214) Jean Artarit, Robespierre, Paris, CNRS Éditions, 2009, p. 29 (المؤلّف).

(215) المقصلة بالفرنسيّة guillotine نسبة إلى Joseph-Ignace Guillotin (1738-1814) وهو طبيب وسياسيّ فرنسيّ توصّل خلال الثّورة الفرنسيّة إلى فرض المقصلة كوسيلة وحيدة لتنفيذ عقوبة الإعدام، واستعان بصديقه الطّبيب الشّرعيّ Antoine Louis (1723-1792) لصنع تلك الآلة الرّهيبة لكي يجنّب المحكوم عليهم العذاب.

ومختلف اللّجان العلميّة التي ينشئها تسهر على الصّحّة الجماعيّة للجسد الاجتماعيّ والصّحّة الفرديّة لكلّ مواطن.

وأيًّا ما يكن الاسم الذي ننعت به استخدام التّرهيب، فإنّه يقود إلى إضعاف التّرابط الأخلاقيّ، بوصفه عنصرًا أساسًا لكلّ حياة في المجتمع، لأنّ ذلك ببساطة يعقلن الأنانيّة ويجعل من الحياة مجرّد حدث بلا معنى. وهو ما أسماه ماكس فيبر «العقلنة المنهجيّة للوجود[216]»، وعمل على إنكار ما أسميته التّناقضات التي تمثّل واقع الحياة اليوميّة.

ولكن تلك العقلنة هي التي تقود في نهاية الأمر إلى ما هو في البداية ملل منتشر من النّزوع الأمنيّ قبل أن يتحوّل إلى ثورة. وعودة إلى المثال أعلاه، أليس ذلك ما حصل «للإرهاب» بعد موت روبسبيير، حينما شرع الملل من استراتيجيّة الخوف يقاوم بفعاليّةٍ «المخوِّفين» الذي يحبّون الخير لإنسانيّة مجرّدة، والحال أنّهم يصفّون البشر؟

يوجد ما يمكن تسميته بطقس الثّورة، حينما يصبح الملال من الفروض المعقلنة، شبه العلميّة ولا سيّما التّجريديّة، قدرًا مشتركًا إلى أقصى حدّ، حين يتّضح أنّ الشّك المحتشم منتشر انتشارًا واسعًا. ومن ثَمّ، فإنّ الحيويّة المفرطة التي تميّز الانتفاضات تتغلّب على طمأنينة الخضوع. ويظهر سأم من الحالة الأمنيّة المشطّة، حيث تحدث «مقاومة ذرويّة لكلّ خرق لحدود الإنسان» بعبارة جيلبير دوران. تلك الحيويّة المفرطة إنّما هي تعبير عن ضرورة تجديد

---

(216) Max Weber, L'Ethique protestante et l'esprit du capitalisme, Paris, Plon, 1964, p. 160 (المؤلّف).

مجتمعيّ، وهذا يحدث بانتظام، حتّى ينبعث نظام الأشياء التي ظنّت العقلانيّة الحديثة أنّ بالإمكان تجاوزها. يمكن هنا أن نذكّر بالصّيغة الباطنيّة الصّائبة **النّظام ينجم عن الفوضى.** انطلاقًا من غليان أوّليّ يمكن أن تنشأ طريقة جديدة للعيش المشترك. وذلك دومًا وعد بنظام قديم وقادم في الوقت ذاته.

ينتهي الخوف حين تنتهي تلك «الخروق لحدود الإنسان»، أي حين نقبل بقوانين الطّبيعة والفروض التي تترتّب عنها. عندما تحدّث هايدغر عن الكينونة وجوهرها، فهو يذكّر بما يبقى، ما يثبت، أي ما يندرج في «ضرورة الحدّ». أن يقبل المرء لذاته حدًّا، أن يحدّد نفسه. بعبارة أسمى، يؤكّد أنّ «التّسمية التي استخدمها أرسطو للكينونة، الكمال الأوّل[217]، هي أن يبقى المرء في الحدّ[218]».

القوّة الأخيرة لذلك الحدّ هو اعتراف المرء بـ «أنّه كائن في طريقه إلى الموت». فقبول التّناهي هو هذا الذي يسمح بتنسيب الخوف أو ملاطفته. والمجتمع، إذ يضع نفسه في ذلك القبول، يستطيع الوصول إلى انفتاح أكيد. ذلك ما يميّز العصر الوسيط الذي عرف، بفضل ديناميّته التي لا تنكَر، كيف يلهو مع الموت: دورات، مبارزات، حفلات عكسيّة، كرنفالات، رقص الأموات، كلّها تشهد بغزارة كيف تتمّ مداهنة ذلك القول المأثور **تذكّر أنّك ستموت**[219].

---

(217) Entéléchie: حال التّحقّق المثاليّ للوجود.

(218) M. Heidegger, Introduction à la métaphysique, Paris, Gallimard, 1967, p. 70 (المؤلّف).

(219) باللّاتينيّة في الأصل memento mori

هذا القبول بالحدّ هو أجمل ما في الإنسان من تناقض، إذ يؤكّد في الوقت ذاته حيوانيّته وما يجعل منه صورة من الرّبّ، وهو ما صاغته النّصرانيّة جيّدًا في لغز التّجسّد، الذي يتحوّل فيه الرّبّ إلى إنسان يعيش حياة يوميّة: وتلك هي «الحياة المستترة» ليسوع، التي انتهت بالصّلب. أي أنّ الموت مقبول، ومن ثمّ يؤول إلى الانبعاث. وما يمكن تسميته بواقعيّة التّجسّد، في معناه الأجلّ، هو احتفاء بالجسد والرّوح، أي ما تقوم عليه العلائقيّة، وما يربط بالآخرين وبالطّبيعة. ذلك هو شسوع الكينونة الفرديّة والجماعيّة، وما يمنحها السَّعة والسّموّ في الوقت ذاته.

يمكن أن نلاحظ في كلّ البحوث الصّوفيّة أنّ العالم في ما يبدو يجد نفسه في المعقول وأنّ العالم المعقول يجد نفسه في الحسّيّ. ولعلّ ذلك ما يشكّل المظهر «الباذخ» للوجود، وهو ما يركّز على الوظيفيّ، أي ما يصلح في الظّاهر لأيّ شيء، بغضّ النّظر عن مجرّد تصوّر نفعيّ ناتج عن المادّيّة الحديثة. وكما توحي به الحكمة الشّعبيّة: «هو أجمل إذا كان غير ذي جدوى». أو: «من يخسرْ يكسبْ!». تلك هي واقعيّة التّجسّد. وحسب صيغة كنت عرضتها للتّأمّل، العمق يختفي في سطح الأشياء.

ذانك هما التّناقض والتّكامل اللّذان يتميّز بهما نظام الأشياء، **تطابق الأضداد** الذي لا نملّ تكرار خصوبته. تطابق إن لم يسمح بالتّغلّب على الخوف من الفناء، فإنّه يسمح بتنسيبه وتحويله إلى طقس. في كتيّب نقديّ سابق **عهد الانتفاضات**[220]، ضربت مثلًا

(220) M. Maffesoli, L'Ère des soulèvements, Paris, Éd. du Cerf, 2021

عن العبادة المريميّة في الكاثوليكيّة التّقليديّة، والاحتفاء بـ«نوتردام الموت الجميل» في بواتييه أو «نوتردام الموت كما ينبغي» في دير فونْغومْبو.

إنّها استعارات جميلة، تذكّر بأنّ الحرّيّة الحقّ لا علاقة لها بـ «التّحرّر» المعاصر الزّائف الصّاخب، بل هي حرّيّة داخليّة، غير مطالِبة بحقوق، وإنّما هي قبول بالواجبات التي ندين بها للطّبيعة الإنسانيّة. واجبات أو فروض أكّدت سيمون فايل في **التّجذّر** مدى خصوبتها، حين ذكّرت بأنّ «المجازفة حاجة أساسيّة» يشلّ غيابُها الوجود[221].

الحماية من الخوف أو الرّعب لا تتضمّن حذف المجازفة، بالعكس، هي تدعو إلى حضورها الدّائم، وهو ما يستوجب شجاعة الكينونة ولذّة الوجود. ومن ثَمّ فإنّ قبول المجازفة هو مصدر الإشعاع المستتر للحكمة الشّعبيّة، وإن كان أقلّ واقعيّة. فهو يمثّل الطّاقة التي تميّز ما أسميته «المركزيّة الجوفيّة» وتموّجات نفَسها الإيقاعيّ. هو موسيقى لامادّيّة، أكثر من الهوس الاقتصاديّ (قدرة شرائيّة، تضخّم ماليّ، إلخ.) يهتف بمخيال اللّحظة الحقيقيّ.

هذا المخيال تشكّل، على المدى الطّويل، انطلاقًا من التّحفّظ والتّحدّي الموروثين من القدماء. بطء ردّة الفعل الاجتماعيّة هو جزء من الخصال الفطريّة التي تميّز عبقريّة العصور! ولكنّ ذلك البطء

انظر أيضًا كتابي

Au Creux des apparences, pour une éthique de l'esthétique (1990), Paris, Éd. de La Table ronde, 2007 (المؤلّف)

(221) Simone Weil, L'Enracinement, p. 35 (المؤلّف).

ينبغي ألّا يخلق وهمًا. والتّاريخ يثبت ذلك، فالثّورات تأتي دائمًا لإسقاط السّلطة القائمة.

يكفي أن نكون متنبّهين للانشقاق البطيء والمؤكّد لعدم الرّضى، والاستياء، والحيل اليوميّة الصّغيرة أو التّفجّرات القطاعيّة المتناوبة التي لا تبخل بها الأحداث الجارية. إنّ تراكم كلّ ذلك هو الذي يؤدّي في بعض الأوقات إلى ثورة حقيقيّة، تلك التي تتمثّل في عودة القيم التّقليديّة التي لم نكن نملك الطّموح أو النّشدان لتجاوزها.

في ذلك البطء يكمن منبع النّهضة، فهي ذات جوهر سحريّ، هي صدى للفتوّة القديمة للإنسانيّة، ولكن، عندئذ، تفقد استراتيجيّة الرّعب المؤدّية إلى الاستسلام كلّ جدوى بشكل مفاجئ، فيغيّر الخوف خندقه، ويصبح «المخوفّون» هم المخوَّفين. كثيرة هي الدّلائل التي تسير في هذا الاتّجاه. في بعض الأحيان، ينقلب البطء إلى ضدّه، ويعمّ العصيان، فلا شيء عندئذ يوقف اندفاعه، ونهبّ إلى ملاحظة الوصايا التي تميّز نظام الأشياء.

أليس هذا ما قاله النّبيّ دواد؟ «أَسْرَعْتُ وَلَمْ أَتَوَانَ لِحِفْظِ وَصَايَاكَ».[222]

مكتبة
t.me/soramnqraa

غريسّيساك، في 18 أغسطس 2022

(222) سفر المزامير: 119، 60. باللّاتينيّة في الأصل، إلى جانب ترجمته الفرنسيّة:
Paratus sum et non sum turbatus, ut custodium mandata tua

مكتبة
t.me/soramnqraa

ميشال مافيزولي

زمن المخاوف

حين يكون كلّ شيء مدعاة إلى الخشية، ينبغي ألّا يُخشى أيّ شيء. إذا كانت كلّ المخاوف ملمّة بالمرء، فينبغي ألّا يخاف أيًّا منها. ثمّة سرّ خلف الفرجة المطلقة توجد في عمق الأشياء وسوف تثير تفتيت تلك الفرجة. ذلك هو نوع الأفكار الهدّامة التي ستعمّ عددًا من المجتمعات السّرّيّة التي يكون الانخراط فيها قطاعيًّا، قطاع «التّجانس النّخبويّ».

قبائل ما بعد الحداثة، اجتماع أذواق أو أصحاب، عودة التّآخي القروسطيّ، والجمعيّات السّياسيّة السّرّيّة اليونانيّة القديمة، كلّ ذلك التّجلّي لرغبة الأخوّة، بسرّيّة في البداية، ثمّ برصانة، وأخيرًا معلَنة بوضوح، يمثّل ردّ فعل على الخوف وسوف يولّد تدريجيًّا مقاومة معمّمة للأوليغارشيا الإعلاميّة السّياسيّة.

WWW.PAGE-7.COM
ISBN: 978-603-8387-79-5
Designed by Tawfiq Omrane

صفحة